فلسفة البيئة عند فرنسيس الأسيزي

دراسة إيكولاهوتية

د/ محمد أبوالمجد محمد قناوي

مدرس فلسفة العصور الوسطى الأوربية– قسم الفلسفة

كلية الاداب– جامعة جنوب الوادي

ملخص البحث:

يناقش هذا البحث مفهوم البيئة عند فرنسيس الأسيزي Francis of Assisi (١١٨١ – ١٢٢٦م)، ويهدف في المقام الأول إلى إيضاح عناصر فلسفة البيئة في فكر الأسيزي من منظور "إيكوثيولوجي" Ecotheology أي (علم البيئة اللاهوتي). حيث يوضح البحث محددات العلاقة بين الفكر الديني والبيئة الطبيعية بغية توضيح الدور الذي يلعبه الدين في هذا الجانب. كما يهدف البحث إلى الوقوف على الأسباب الحقيقية لأزمة العلاقة – إن صح التعبير– بين الإنسان والمخلوقات والبيئة الطبيعية. وقد أدت النظرة الأسيزية لطبيعة العلاقة بين الإنسان والمخلوقات، دورًا مهمًا فاعلاً في ذلك الاتجاه. فقد طرح رؤية تحمل طابع التجديد في النظرة إلى المخلوقات ودورها الحيوي في منظومة الخلق الإلهي من خلال مفاهيم مثل، الأخ والأخت في وصفه لطبيعة تلك العلاقة، إلى جانب نشيد المخلوقات وعظة الطيور وقصته الشهيرة مع ذئب جوبيو. ويتناول البحث بالدراسة مجموعة نقاط هي: البيئة في التصور المسيحي، مفهوم البيئة عند الأسيزي " منظور عام"، مواقفه تجاه المخلوقات، تأثير فرنسيس الأسيزي في مجال فلسفة البيئة.

كلمات مفتاحية: فرنسيس الأسيزي، البيئة، المخلوقات، عظة الطيور، الأخ والأخت.

Francis of Assisi Environmental Philosophy
An Eco-theological Study

Abstract:

This research discusses the concept of environment according to Francis of Assisi, and aims primarily to clarify the elements of environmental philosophy in Assisi thought, from the perspective of "Ecotheology" (theological ecology). Where the research clarifies the determinants of the relationship between religious thought and nature, in order to clarify the role that religion plays in this aspect. The research also aims to identify the real causes of the crisis of the relationship - so to speak - between humans, creatures and the natural environment. The Assisi view of the nature of the relationship between man and creatures played an important and effective role in that direction. He put forward a vision that bears the nature of renewal in the view of creatures and their vital role in the system of divine creation through concepts such as, brother and sister in his description of the nature of that relationship, in addition to the anthem of creatures, the sermon of birds and his famous story with the wolf of Gubbio.

Keywords: Francis of Assisi, environment, creatures, bird sermon, brother and sister.

مقدمة

إن بحث ودراسة موضوعات فلسفة البيئة، بكونها إحدى فروع الفلسفة التطبيقية المعاصرة، التي تهتم بتوضيح العلاقة بين الإنسان وبيئته الطبيعية، من وجهة نظر فلسفة العصور الوسطى، إنما يبدد وينفي المعتقد الشائع، الذي يرى أن فلسفة العصور الوسطى لم تتطرق إلى موضوعات ذات جدوى تخص الواقع العملي للحياة الإنسانية. من هذه الزاوية فإننا نحاول استكشاف رؤى جديدة لموضوعات فلسفة العصور الوسطى، تواكب وتحاكي النظرة المعاصرة لمشاكل الإنسان والبيئة المحيطة.

وفيما يتعلق بموضوع الدراسة – فلسفة البيئة عند فرنسيس الأسيزي–، فهو يحمل أهمية بالغة من جانبين: الأول، يتمثل في إدراك الإنسان أهمية الرحمة والرفق بالمخلوقات الحية المتعايشة معه في هذا الكون المتسع، وهذا يعزز من امتلاكه نفس النظرة نحو أقرانه من البشر، وذلك هو الجانب الأخر. لذلك يجب التركيز على تطوير الوعي بالمشكلات البيئية، وهذا هو المغزى الحقيقي من طرق موضوعات تتعلق بفلسفة البيئة في منظورها العام. وتهدف إلى نشر روح الرحمة والإخاء بين الإنسان وأقرانه من البشر، بل يجب تعميمها لتشمل جميع الكائنات الحية، أملًا في بعث "دين إيكولوجي حقيقي" جديد، يسمى علم البيئة اللاهوتي Ecotheology، وهذا ما تضمنته رؤية فرنسيس الأسيزي أيضًا.

ويُعد القديس فرنسيس الأسيزي رائدًا في مجال فلسفة البيئة والمحافظة على الطبيعة، حتى أصبح أيقونة وملهمًا للمهتمين بمجال فلسفة البيئة. فحتى لو لم يعالج قضايا التدهور البيئي أو التلوث بالمفهوم المعاصر. إلا أن عمله يعد محاولة جادة تستطيع تيارات فلسفة البيئة المعاصرة الاستفادة منه؛ بوصفه معالجة دينية أخلاقية مفيدة؛ لما ينبغي علينا فعله تجاه المخلوقات والبيئة المحيطة على حد سواء. يأتي هذا من منظور رؤيته لفكرة الخلق والأصل المشترك لجميع الكائنات الحية. فكل الخليقة تتمتع بأهمية معينة داخل المنظومة الإلهية المتكاملة للخلق؛ ولذلك يجب احترامها ومعاملتها بشكل جيد. تلك هي النقطة الرئيسة والأبرز التي ارتكزت عليها رؤية فرنسيس الأسيزي، وأكد عليها

اللاهوت الفرنسيسكاني في الوقت نفسه، والتي تُعد من أهم ركائز فلسفة الأخلاق البيئية المعاصرة.

ونحن إذ نتحدث عن فرنسيس الأسيزي نجد أننا بصدد شخصية من الشخصيات التي أحدثت تأثيرًا بالغًا على مسار الروحانية الكاثوليكية في العصور الوسطى، ضمن إطار نظرته الجديدة للعلاقة بين الإنسان والطبيعة. وكذلك اللاهوت والفلسفة والروحانية والأخلاق وممارسة المشاركة الاجتماعية. فقد شعر بالاستقلالية الروحية لجميع أجزاء الطبيعة، التي يؤدي كل منها دوره وفق ما أراده الله له. وقد اتضحت معالم نظرته ومحبته للبيئة الطبيعية من خلال أعماله المختلفة، ومنها: "نشيد المخلوقات" أو "الأخ الشمس"، و"العظة إلى الطيور"، وقصته الشهيرة مع ذئب جوبيو، كذلك استخدامه لمصطلحات الأخ والأخت في حديثه عن الكائنات والمخلوقات مثل، "الأخ الشمس"، و"الأخت القمر والنجوم"، و"الأخ النار"، و"الأخ الريح"، و"الأخت المياه"، و"الأخت الأم الأرض"، وغيرها من المصطلحات التي تدل على تقديره البالغ للطبيعة بجميع أجزائها، وكذلك محبته العميقة لجميع المخلوقات. أيضًا شدد على ضرورة معاملة البيئة والحياة البرية باحترام وتقدير كبيرين. من هنا جاء الاقتراح الذي أوصى بأن يكون فرنسيس شفيعًا وملهمًا لرواد ومنظمات البحث في موضوعات فلسفة البيئة.

وهناك تساؤلات رئيسة تطرحها دراسة موضوع فلسفة البيئة عند الأسيزي، تتمثل في الآتي: أولاً: هل هناك حاجة ملّحة إلى إعادة قراءة روايات وعظات الكتاب المقدس عن الطبيعة والمخلوقات؟ ثانيًا: ما الأصل الحقيقي للأزمة البيئية؟ وهل يعيش الإنسان بمعزل عن البيئة الطبيعية المحيطة به؟ ثالثاً: ما الدور الذي لعبته فلسفة العصور الوسطى المسيحية في مجال البيئة؟ وما رؤية أوغسطين وتوما الأكويني في هذا الاتجاه؟ رابعًا: ما الإسهام الذي قدمه فرنسيس الأسيزي في مجال فلسفة البيئة؟ وما المقصود بمفهوم التكاملية داخل إطار فلسفة البيئة عنده ؟ خامسًا: إذا كان مفهوم المركزية البشرية يمثل ركنًا حقيقيًا من أركان الأزمة البيئية الحالية، فما الحلول المقترحة لتخفيف حدة المفاهيم الواردة في هذا الإطار؟

أما عن منهج الدراسة: فقد اقتضت دراسة ذلك الموضوع استخدام المنهج التاريخي؛ لعرض تطور مفهوم البيئة في فلسفة العصر الوسيط حتى فرنسيس الأسيزي، والمنهج التحليلي؛ لمحاولة فهم وتفسير آراءه، ومن ثم توضيح علاقتها بفلسفة البيئة وعناصرها المختلفة. واستخدام المنهج النقدي كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

في ضوء تلك التساؤلات، ووفق منهج البحث قمت بتقسيم عناصر الدراسة كالآتي:

مقدمة

أولًا: البيئة في التصور المسيحي

ثانيًا: مفهوم البيئة عند الأسيزي " منظور عام".

ثالثًا: مواقفه تجاه المخلوقات

رابعًا: تأثير فرنسيس الأسيزي في مجال فلسفة البيئة

خاتمة

أولًا: البيئة في التصور المسيحي

نحاول في تلك النقطة من نقاط الدراسة استكشاف واستجلاء النظرة المسيحية للبيئة ومكوناتها، ضمن إطار فلسفة العصر الوسيط. وهنا نتساءل، هل يجب أن يقول الدين شيئًا عن معاملة الحيوانات؟ أو بمعنى أخر هل يضع الدين قوانين أخلاقية معينة تحدد العلاقة بين الإنسان وبيئته الطبيعية؟. يعتقد عديد من المؤمنين ذلك، وينظرون إلى الدور الذي لعبته الأديان تاريخياً في مساعدة المجتمعات على تطوير قوانين أخلاقية فاضلة. بالنسبة للعديد من محبي الحيوانات، يجب أن تمتد المعتقدات الدينية حول الرحمة والعطف لتشمل الحيوانات. على سبيل المثال، كتب عالم اللاهوت الإنجليزي "أندرو لينزي" Andrew Linzey (١٩٨٧، ١٩٩٧م)، باستفاضة عن الدور الذي تلعبه التقاليد الدينية (أو يمكن أن تلعبه) في تعليم التعاطف والعدالة فيما يتعلق بالحيوانات، وخلص إلى أن جميع ديانات العالم تقريبًا لديها مبادئ توجيهية أخلاقية متسقة مع المعاملة الإنسانية

للحيوانات.(١) كذلك فإن تهديدات التدهور البيئي توضح للبعض أن اللاهوت يجب أن يربط نفسه بشكل حاسم بفهم العالم، الذي يظهر بدوره في العلوم البيئية. حيث يشعر الكثيرون الآن أن هناك أسبابًا مقنعة لسد الفجوة القائمة منذ فترة طويلة بين التفكير الديني والتفكير العلمي. لذلك يتطلب علم اللاهوت الجيد اهتمامًا دقيقًا بالمناقشات العلمية، بالإضافة إلى الآثار المترتبة على استخدام الطاقة ووتيرة التطور التكنولوجي.(٢) لقد تجذرت هذه المخاوف الآن في المجتمع الديني، حيث يوجد اعتراف متزايد بالأزمة البيئية كمشكلة روحية وأخلاقية في المقام الأول.(٣)

أما عن مواقف المسيحية تجاه المسألة البيئية، فهناك وجهتي نظر تتنازعان تلك الرؤية: ترى أولهما أن المسيحية تميل أكثر نحو الإيمان بالتقدم الدائم، والسيطرة البشرية على جميع الحيوانات، وترى أن الله صمم الأرض لصالح الإنسان وحكمه فحسب. فهناك تركيز على انفصال الإنسان عن البيئة، ووضع الإنسان أقرب إلى الله (٤)

يأتي هذا نتيجة لانحدار المسيحية من مجمل التقاليد العبرية ومن التقاليد الدينية والفلسفية القديمة الأخرى، حيث أصبح الاعتراف بقيمة الفرد مركز العقيدة المسيحية، الذي كان خلاصه نتيجة سلوكه في هذه الحياة. لكن كان هناك القليل من الإجماع حول ما يشكل السلوك المسيحي تجاه الحيوانات والعالم الطبيعي. ولم يقدم العهد الجديد، مثل العهد

---

1 - Margo DeMello: Animals and Society: An Introduction to Human-Animal Studies, Columbia University Press, New York, 2012, p. 319.

2 - Charles R. Pinches ،Jay B. McDaniel: Good News for Animals?: Christian Approaches to Animal Well-Being, Wipf and Stock Publishers, U.S.A, 2008, p. 35.

3 - John Doody, Kim Paffenroth, Mark Smillie: Augustine and the Environment, Lexington Books, New York, 2016, p. 167.

4 - Ercan Özen, Simon Grima, Rebecca E. Dalli Gonzi: Emerald Studies in Finance, Insurance, and Risk Management - New Challenges for Future Sustainability and Wellbeing, volume2, first published, Emerald Group Publishing, United Kingdom, 2021, p.p 345, 346.

القديم، إشارات قوية في ذلك الاتجاه.[٥] فقد استخدم يسوع الحيوانات كرموز إيمانية، فالدجاجة تجمع فراخها تحت جناحها، ومثل الراعي الذي يفرح بالعثور على الخروف الضال، لكنه أكد لأتباعه أن حياتهم أكثر قيمة من تلك التي يعيشها الوحوش. كما ذكر بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس أن تركيز الله الأساسي كان مع البشر وليس الحيوانات. وكان الشغل الشاغل للمسيحيين هو تحقيق الحياة بعد الموت، وكانت هذه الحياة متاحة فقط للبشر الذين يمتلكون أرواحًا خالدة.[٦]

استنادًا إلى ذلك أقر عديد من اللاهوتيين المسيحيين الأوائل وجهة نظر أكثر تشددًا، تنص على أنه نظرًا لأن الله جعل البشر على صورته متفردين في امتلاكهم لروح خالدة، فإنهم بطبيعة الحال فوق بقية الطبيعة. كان هذا الرأي متوافقًا مع الأفكار القديمة التي رأت أن الوجود يخضع لتراتبية صارمة، والتي وضعت الإنسان أيضًا في قمة الخليقة. وها هو أرسطو الذي ميّز الإنسان عن بقية المخلوقات بفضل عقلانيته. وبالمثل جادلت الرواقية Stoicism بأن العقلانية ميزت البشر عن بقية الطبيعة وجعلتهم أقرب إلى الآلهة. بالتالي تمتع البشر – مثل الآلهة–، بالهيمنة الفطرية على الطبيعة، والتي صُنعت لاستخدامهم.[٧]

وقد واصل اللاهوتيون والقديسون الذين يُطلق عليهم آباء الكنيسة المسيحية فى الألفية الأولى شجب تعاليم الكتاب المقدس لقسوتها على الحيوانات، بل اعتبروا أن هذه القسوة تستحق شجبًا مضاعفًا؛ لأنها تحط من قدر الإنسان أولًا، وتضفى إهانة أخرى على الحيوانات التي تعرضت في الأصل لوجود مؤلم بعصيان الإنسان، أي عصيان آدم وحواء ثانيًا، وصار السبب الأول راسخًا فى التراث المسيحي: حيث يقوم على أساس الأخير وهو أقل قبولًا من الناحية الكلية، حيث كان هناك زمن قبل السقوط شعر فيه الناس بأنهم

5 - Anita Guerrini: Experimenting with Humans and Animals: From Galen to Animal Rights, JHU Press, U.S.A, 2003, p.20.

6 - Ibid: p.20.

7 - Anita Guerrini: :Op. Cit, p.23.

يمتلكون الخلود، والتزموا بنظام غذائي نباتي، وتنعموا بالزمن، ورافقوا كل الحيوانات الأليفة.(٨)

في حين رأى المؤرخ الأمريكي "لين وايت" Lynn Townsend White (١٩٠٧- ١٩٨٧م) أن المسيحية لم ترث من اليهودية نظرتها للزمن على أنه لا يخضع للتكرار ويسير في خط مستقيم فحسب، بل القصة المشهورة عن الخلق أيضًا. فعلى مراحل تدريجية، خلق الله المحب والقوي النور والظلام والأجرام السماوية والأرض وكل نباتاتها وحيواناتها وطيورها وأسماكها، وخلق الله آدم في النهاية. وقام الإنسان بتسمية جميع الحيوانات، وبذلك أسس هيمنته عليها.(٩) خطط الله كل هذا صراحةً لمنفعة الإنسان وحكمه: ولم يكن لأي من المخلوقات المادية أي غرض سوى خدمة وتلبية رغبات الإنسان. وعلى الرغم من أن جسد الإنسان مصنوع من الطين، فإنه ليس مجرد جزء من الطبيعة: إنه مخلوق على صورة الله.(١٠) واستطرد شارحًا وجهة نظره، موضحًا أن المسيحية في شكلها الغربي -على وجه الخصوص-، أكثر الديانات التي تتمحور حول الإنسان، التي شهدها العالم. في وقت مبكر من القرن الثاني، كان كل من ترتليان Tertullian (١٦٠ - ٢٢٠ م) والقديس إيرينايوس Irenaeus ١٣٠- ٢٠٢م ، يصران على أنه عندما شكل الله آدم كان ينذر بصورة المسيح المتجسد، آدم الثاني. بذلك يشترك الإنسان- إلى حد كبير- في سمو الله للطبيعة. فالمسيحية، على عكس الوثنية القديمة وديانات آسيا (باستثناء الزرادشتية ربما)، لم تؤسس فقط ازدواجية بين الإنسان والطبيعة، ولكنها أصرت أيضًا على أن إرادة الله هي أن يستغل الإنسان الطبيعة لتحقيق غاياته الخاصة.(١١) لذلك ألقى مقال وايت التاريخي، "الجذور التاريخية لأزمتنا البيئية"

8 - James V. Parker: Animal Minds, Animal Souls, Animal Rights, University Press of America, U.S.A, 2010, p. 99.

9 - White, Lynn. The Historical Roots of Our Ecological Crisis. Science, v.155, no. 3767 (March 10, 1967):1203-1207, p. 1205.

10 - Ibid: p. 1205.

11 - White, Lynn. : Op. Cit p. 1205.

(١٩٦٧م) باللوم على المسيحية لتمسكها بالبديهية " المفترضة أن الطبيعة لم توجد إلا لخدمة الإنسان، وبالتالي تُعد عنصرًا فاعلًا في الدمار البيئي". وفي محاولة تقديمه حلاً لأزمة البيئة، أكد أن جذورها تكمن في التعارض الثنائي بين المسيحية (الثقافة) والخلق (الطبيعة). وجادل بأن: المزيد من العلم والتكنولوجيا لن يخرجانا من الأزمة البيئية الحالية حتى نجد دينًا جديدًا، أو نعيد التفكير في ديننا القديم.(١٢)

أما وجهة النظر الأخرى فهي التي تنظر إلى الموضوع في إطار رؤية الكتاب المقدس. لتوضيح ذلك نعود إلى ما جاء في الرسالة الأولى إلى أهل تيموثاوس، الإصحاح الرابع – الآيات (٤ – ٥)"– :لأَنَّ كُلَّ خَلِيقَةِ اللهِ جَيِّدَةٌ، وَلاَ يُرْفَضُ شَيْءٌ إِذَا أُخِذَ مَعَ الشُّكْرِ، ٥لأَنَّهُ يُقَدَّسُ بِكَلِمَةِ اللهِ وَالصَّلاَةِ (١٣)". انطلاقًا مما ورد في مضمون تلك الآية نجد أن خليقة الله كلها حسنة وتستحق التقدير، ومن ثم يجب المحافظة عليها والاهتمام بها من منظور فكرة الخلق. وعلى هذا الأساس تأتي معالجتنا لقضية البيئة عند فرنسيس الأسيزي، المتمركزة حول نقطة رئيسة مفصلية، تمثلت في مضمون علاقة الجنس البشري ببقية الخليقة. وبالعودة إلى مصادر الفكر المسيحي المبكرة عن التعامل مع المحيط البيئي، نجد أن نموذج الزاهد الحقيقي، مثّل حافزًا أساسيًا في تطوير فلسفة الإنسان كمبتكر لبيئات جديدة. فقد تقاعد القديسون الأوائل عن قصد من العالم، متخيلين أنهم من خلال تطهيرهم كانوا يعيدون إنشاء الجنة الأرضية، مستعيدين تأكيد السيادة الكاملة على كل الحياة التي كانت موجودة قبل السقوط. وأصبح ترويض البرية جزءًا من التجربة الدينية.(١٤) ومن خلال تقييم معتقدات وأفعال النساك والرهبان – أسلاف فرنسيس – نجد

---

[12] - Gregory Stephens: Trilogies as Cultural Analysis: Literary Re-imaginings of Sea Crossings, Animals, and Fathering, first published, Cambridge Scholars Publishing, England, 2018, p.117.

[١٣] - القديس بولس: الرسالة الولى إلى أهل تيموثاوس: ٤، ٤: ٥.

[14] - Roger D Sorrell: St. Francis of Assisi and Nature: Tradition and Innovation in Western Christian Attitudes toward the Environment:, Oxford University Press, New York, 1988p .4.

أنهم امتلكوا نظرة وتأثيرًا إيكولوجيين رائعين في الواقع.(١٥) لقد ألقوا بأنفسهم، دون أي حماية اجتماعية، في بيئة معادية جديدة تتطلب قسوة أعظم رجال التخوم. فقد توقعوا تمامًا صراعًا مع أنفسهم ومع القوى البيئية، في بيئة طبيعية غير مأهولة تسكنها الوحوش الشرسة والشياطين. فقد ذهب القديس أنطونيوس الكبير Saint Anthony the Great (٢٥١– ٣٥٦م)، النموذج الأول لجميع النساك إلى الصحراء ليعيش في روحانية الجغرافيا وفي تطور الأنثروبولوجيا المسيحية، كانت صحراء الزاهد بوحوشها البرية إيحاءً بجنة آدم قبل السقوط.(١٦) وقد أشار القديس أثناسيوس St. Athanasius (٢٩٣– ٣٧٣م)، كاتب سيرة القديس أنطونيوس، أنه عندما قادته الرغبة الإلهية إلى الخلوة داخل الجبل، "أحب المكان من دافع حبه لله ". وعندما سأله فيلسوف كيف يعيش بدون كتب، أجاب على ما ورد، "كتابي هو طبيعة المخلوقات. فيه عندما أختار يمكنني قراءة كلام الله.(١٧)

وقد تبنى القديس أثناسيوس نفسه فكرة القديس بولس، التي تنص على أن الله صالح جميع الأشياء في السماء والأرض في المسيح، وبه وُجد كل شيء في الكون. حيث يرى البعض اليوم أن عقيدته هي ترياق مبكر لما يسمونه التمركز المفرط على الإنسان، ومن ناحية أخرى يراه الكثيرون داعمًا للأمل في أن تشارك الحيوانات في القيامة. على الرغم من أن الحيوانات ربما لم تكن في دائرة اهتمام أثناسيوس، إلا أن قيامة الحيوانات هي بالفعل نتيجة طبيعية معقولة للاعتقاد بأن نهاية الزمان ستشهد استعادة كل الأشياء في المسيح.(١٨)

أما في العصور الوسطى، فقد انضمت المفاهيم اليونانية حول الجسد والطبيعة مع المفاهيم المسيحية حول مكانة البشر في الطبيعة وواجباتهم تجاه العالم الطبيعي. وشكل هذا

---

15 - Roger D Sorrell: St. Francis of Assisi and Nature: Tradition and Innovation in Western Christian Attitudes toward the Environment, Op. Cit, p .4.

16 - Ibid: p .16.

17 - Ibid: p .16.

18 - James V. Parker: Op. Cit, p. 99.

المزيج القوي من الأفكار إطارًا لوجهة النظر الغربية تجاه الحيوانات والبشر والتجارب. على الرغم من أن أفكارًا معينة كانت موضع نزاع في وقت لاحق، إلا أن الإطار العام الذي أعلن المكانة المتفوقة للبشر بين الكائنات الحية، ظل يؤثر على أفكارنا حتى اليوم.(١٩)

ويبدو القديس أوغسطين Augustine (٣٥٤-٤٣٠م). مرشح غير محتمل لعلم البيئة، ومع ذلك فإن فكره يقدم منظورًا مثيرًا للاهتمام ومفيدًا في ذلك الاتجاه. على عكس فرنسيس الأسيزي، لم يُنظر إلى الأسقف الأفريقي للوهلة الأولى على أنه من دعاة حماية البيئة، ويجد البعض أن لاهوته غير مجدى، فيما يتعلق بمسألة البيئة. ومع ذلك، من المثير للاهتمام أن لديه الكثير ليقدمه في هذا الجانب إذا فُهم وفُسرُ بشكل صحيح.(٢٠) فبمناقشة أنثروبولوجيا أوغسطين وفهمه لخطيئة الإنسان وفساده، بالإضافة إلى فهمه للنظام المخلوق نفسه. فإن لاهوته الناضج يحتضن العالم المادي باعتباره إيجابيًا. إنه ينظر إلى الوجود نظرة كلية، حيث إن المخلوقات كلها حسنة بطبيعتها، وبالتالي تستحق رعاية الإنسان والرحمة. علاوة على ذلك يوفر فكر أوغسطين تشخيصًا مقنعًا للحالة البشرية ولما يبدو أنه يقود التغيير الحميم والمشكلات البيئية الأخرى. فهو يبدأ بالسعي وراء الحقيقة، بالتأمل في الذات، الذي يقود إلى إدراك الحقيقة والأخلاق. هذا الوعي الذاتي هو الذي يقود المرء إلى الوعي بالخطيئة ومسؤوليته عن أفعاله.(٢١) ولذلك نجد أن آراء أوغسطين في الطبيعة تمثل جزء من صورته الأكبر للبشرية الساقطة؛ لأن الطبيعة عكست عواقب سقوط آدم، والتي غيرت منظرًا طبيعيًا مثاليًا إلى مشهد مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالموت والمعاناة. على الرغم من أن الطبيعة استمرت في إظهار تصميم الله وأهدافه، فقد أُفسد هذا التصميم بسبب الخطيئة البشرية.(٢٢)

---

19 - Anita Guerrini: Op. Cit, p.20.
20 - John Doody, Kim Paffenroth, Mark Smillie: Op. Cit, p. 166.
21 - Ibid: p. p 166, 167.
22 - Anita Guerrini: Op. Cit, p.20.

من ناحية أخرى اعترف أوغسطين بتراتبية الوجود في تعريفه للهيمنة البشرية. حيث يقول: "وعليه فإن كان العقل والذكاء يرفعاننا فوق جميع هذه الحيوانات، فهو الجزء الذي يجب أن ننميه وهو يجعلنا أسمى من الحيوانات. وحتى طيور الجو ليست أفضل منا، بل خاضعة لنا لما تمتاز به نفسنا العاقلة".(٢٣) وفقًا لذلك يقع البشر بين الحيوانات والله في الميزان، لكن العقل يجعلهم أقرب إلى الله. وفي حين أن الحيوانات تتفوق على النباتات، فإن البشر متفوقون على الجميع. كل كائن وفق هذا المقياس له قيمة بكونه جزءًا من خليقة الله، لكن جميعها ليست متساوية القيمة. إن الاعتقاد بأن الجميع متساوون في القيمة يُعد "ذروة الخرافات"، وفقًا لأوغسطين. كما أكد بعدم وجود حقوق مشتركة بيننا وبين الوحوش والأشجار"، مضيفًا أنه يمكننا أن ندرك من خلال صرخات الحيوانات أنها تموت من الألم، ونحن لا نكترث بذلك؛ لأن الوحش–الذي يفتقر إلى الروح العقلانية– لا يرتبط بنا بطبيعة مشتركة. وقد ظلت هذه العقيدة المسيحية لمعاملة الحيوانات حتى العصر الحديث.(٢٤)

أما توما الاكويني (١٢٢٥–١٢٧٤م)، الذي رسم حدود الإيمان والعقل في كتابه الخلاصة اللاهوتية Summe theologica. فقد ردد مفهوم أوغسطين الذي يُقر أن كتاب الطبيعة مكمل لكتاب الله. لكن نظرًا لأن العقل أُعطي من الله، فقد يقود المؤمنين إلى حقائق متوافقة مع حقيقة الوحي الإلهي. وقد قبل توما– مثل أوغسطين– أيضًا نظرة أرسطو الهرمية للطبيعة على أنها سلسلة من الموجودات.(٢٥) وبعد أرسطو، أعلن الأكويني أن "النباتات تستفيد من الأرض في غذائها، وتستفيد الحيوانات من النباتات، ويستفيد الإنسان من النباتات والحيوانات معًا. بذلك ينطوي التمييز بين الإنسان والحيوان على تسلسل هرمي.(٢٦) حيث أوضح أن التفوق البشري كان قائمًا على امتلاك العقل، مما

---

[٢٣] - القديس أوغسطين: مدينة الله، ج١، ترجمة الخور. يوحنا الحلو،، دار المشرق، ط٢، بيروت، ٢٠٠٦م، ك٨، ف١٥، ص ص ٣٨٩، ٣٩٠.

[24] - Anita Guerrini: Op. Cit, p.20.

[25] - Ibid: p.22.

[26] - James V. Parker: Op. Cit, p. 100.

يعني وجود روح خالدة. ونظرًا لأن الحيوانات تفتقر إلى العقل، فقد افتقرت إلى امتلاك أرواح خالدة، وبالتالي لا يمكنها المشاركة في الحياة الآخرة. ولأنهم كانوا غير عقلانيين، فقد افتقروا إلى القدرة على الاختيار أيضًا. ويبدو أن الحيوانات تتخذ قراراتها وفقًا لبنية أجسادها، وليس لأنها مارست العقل والإرادة الحرة.(٢٧)

بذلك أقر توما أن افتقار الحيوانات إلى العقل، جعلها موجودة من أجل الإنسان، وهى مجرد وسائل وأدوات لتحقيق مصلحة الإنسان، ولأنهم يفتقرون إلى "السيطرة على أفعالهم، فهم" يخضعون بشكل طبيعي للعبودية.(٢٨) وقد رفض كثيرون نظام توما بسبب مركزيته البشرية الأخلاقية الصارمة وولائه المزعوم لميتافيزيقيا ثابتة عفا عليها الزمن.(٢٩) بذلك ساعد توما في تأسيس تقليد لسوء السلوك الذي ابتلي به اللاهوت الأخلاقي الكاثوليكي حتى وقت قريب. وأصبحت من الممارسات المعتادة في اللاهوت التقليدي ورسخت في الأذهان لفترة طويلة.(٣٠)

لكن اعتقاد توما أن الحيوانات خلقت من أجل البشر، وأنه لا توجد قيود على استخدام الإنسان للمخلوقات على الأرض، وكل الأشياء موجودة للاستخدام البشري؛ لمساعدتهم على الاقتراب من الله. لم يكن مبررًا لاستخدام القسوة، التي لا يمكن أن يكون لها دور في الشخصية الصالحة. لذلك على الرغم من عدم وجود قيود لاهوتية ضدها، فإن المسيحيين الصالحين الذين يتصفون بالرحمة سيعاملون الحيوانات بشكل جيد. هذا العمل في حد ذاته لم يجعل البشر صالحين؛ لأن الحيوانات تفتقر إلى المكانة الأخلاقية. حيث تم تعريف الخير من حيث السلوك تجاه البشر الآخرين فحسب. ومع ذلك قال توما إن القسوة على الحيوانات يمكن أن تؤدي إلى القسوة تجاه البشر، على الرغم من أن تعريف ما

---

[٢٧] - توما الأكوينى: الخلاصة اللاهوتية، مج٢، ترجمه من اللاتينية إلى العربية الخورى. بولس عواد، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٨٧م، المبحث الثالث والتسعون، ف٢، ص ٥٠٦.

[28] - Charles R. Pinches ،Jay B. McDaniel: Good News for Animals?: Christian Approaches to Animal Well-Being, Op. Cit, p. 36.

[29] - Ibid:, p. 36.

[30] - Charles R. Pinches ،Jay B. McDaniel: Op. Cit, p. 37.

يشكل سلوكًا قاسيًا يختلف بصورة كلية. وبالتالي أصبحت حجة توما مرجعًا قياسيًا لعلاج الحيوانات وأرست أساسًا لاهوتيًا للتجريب عليها، على الرغم من أن هذا لم يكن يمارس في عصره. وعندما تطورت التجارب خلال عصر النهضة، كان التبرير لذلك حاضرًا.(٣١)

وفقًا للأكويني، لا تشمل الأخلاق الحيوانات أو الطبيعة غير الحية بشكل مباشر. ويمكن أن يحدث ذلك؛ لأن الحيوانات لا تمارس التفكير المجرد أو الإرادة الحرة الضرورية للحياة الأخلاقية. ومع ذلك فإن الأخلاق تشمل الحيوانات بشكل غير مباشر بقدر ما يدين البشر بها لله ولحسنه أن يتعاطفوا معهم. علاوة على ذلك، كما رأينا بالفعل، فإن التعاطف مع الحيوانات يغذي أيضًا عادة فضيلة ضرورية في العلاقات الإنسانية.(٣٢)

وهناك جانب أخر لفكر توما الأخلاقي، هو المتعلق بفكرته عن غائية الخلق والهدف النهائي لجميع المخلوقات. يبدو أنه يُنذر بمشروع إيكولوجي عميق، من حيث إن علاقاتنا وعلاقات الله ببقية الكون الطبيعي، تكمن في كون الله يمثل غايتها ومنتهاها. وتأكيده على مشاركة جميع المخلوقات في المجتمع الأوسع للخلق يولد رؤية شاملة لارتباط جميع الكائنات ببعضها البعض وارتباطها بالله أيضًا. وبالتالي إذا كانت نظريته الأخلاقية الصارمة المتمركزة حول الإنسان غير مفيدة اليوم، فربما تكون نظرته الموسعة للوجود ككل مفيدة؛ لأنها توفر لغة بديلة قوية.(٣٣) بالنسبة لتوما، تمثل الحيوانات أحد الطرق إلى الله؛ لأن الله خلقها وأودعها في الوجود؛ لذلك هي تقودنا إليه. وبينما يؤمن بأن الكائنات العقلانية فقط هي التي خلقت على صورة الله"، فإنه يصف الحيوانات (جميع المخلوقات) بأنها مخلوقة على شبه الله وتحمل صفات خالقها، وكل الأشياء المخلوقة

31 - Anita Guerrini: Op. Cit, p.22.
32 - James V. Parker: Animal Minds, Animal Souls, Animal Rights, Op. Cit, p 99.
33 - Charles R. Pinches ،Jay B. McDaniel: Op. Cit, p. 37.

ترغب في الله موجدها جميعًا." الله موجود في كل شيء. يحوي جميع الكائنات الموجودة داخل سر العقل الإلهي.(٣٤)

من هنا تظهر البنية البيئية لمنطق توما بقوة في إصراره على أن وجود الكائنات يجب أن يُفهم في اطار علاقاتها المتعددة مع بعضها البعض، مع الخلق ككل، ومع الله. والكون كله، بجميع أجزائه، مكرس تجاه الله كنهاية له".(٣٥)

هكذا طور توما مفهوم الصالح العام كمبدأ كوني–إيكولوجي يؤكد أن خير المجتمع البشري يقع داخل مجتمع أوسع، أي مجتمع كل الخليقة. يركز هذا التفسير الموسع للمجتمع البيئي جيدًا على الحاجة إلى فهم شامل للأخلاق، ولا يلتزم بالدفاع عن الحياة والمصالح البشرية فحسب، بل بالدفاع عن كل أشكال الحياة، وكل الخليقة.(٣٦) من واقع تلك النظرة نستطيع أن نلتمس الحاجة إلى فهم إيكولوجي موسع للمفهوم التقليدي عن الصالح العام. هذا التوسع في الاهتمام والولاء الأخلاقيين أمر بالغ الأهمية لعصر بدأنا فيه إدراك النطاق المتزايد لقوة البشرية على إبادة أنواع الحيوانات المختلفة وتدهور مستوي النظام البيئي.(٣٧)

في الحقيقة هناك عدة نقاط يجب الوقوف عندها ومناقشتها في هذا الإطار: حيث اختلفت الآراء وتباينت في النظر إلى دور الفلسفة المسيحية في مجال فلسفة البيئة، فمن ناحية يرى البعض أنها أهملت وهمشت دور المخلوقات والبيئة الطبيعية في مقابل تركيزها المفرط على مكانة الإنسان في هذا الكون. وإن كنا لا نتفق مع تلك النظرة المفرطة في تركيزها على الإنسان، والطابع الهرمي لعلاقته بالبيئة وبقية المخلوقات، ووضعه فوق قمة هرم الخليقة واعتبار المخلوقات مجرد أدوات ووسائل تساعده في تنفيذ رغباته وبسط سيطرته على البيئة؛ لأن هذا قد يقود الإنسان إلى استخدام صلاحياته تجاه الطبيعة بشكل خاطئ. ومن ناحية أخرى لا يجب إغفال جوانب أخرى تتعلق بالبيئة في

34 - Ibid: p. 38.
35 - Ibid: p. 38.
36 - Ibid: p. 39.
37 - Ibid: p. 39.

التصور المسيحي، ومنها: هناك آيات وعظات وإرشادات متعددة حوتها تعاليم الكتاب المقدس حثت على أهمية دور المخلوقات المختلفة في نظام إدارة الله للعالم. وبالتالي تقوية أواصر الصلة بين الإنسان وبقية المخلوقات وكذلك البيئة الطبيعية. أيضًا هناك قصص ومواقف متعددة تجمع القديسين والحيوانات في التراث المسيحي، مما يدل على محبة القديسين للحيوانات. أما فيما يتعلق بأوغسطين وتوما الأكويني، نجد أن هناك وجهتي نظر طُرحتا في هذا الصدد؛ فإن كان كلاهما قد ركز على أهمية ومكانة الإنسان وتعزيز مكانته في سلم الخليقة لامتلاكه للعقل. إلا أنهما قدما رؤية في مفهوم الخلق ومشاركة جميع المخلوقات في عالم الخلق، ومشاركة جميع المخلوقات في عالم الخلق الإلهي تحمل طابعًا مهمًا في هذا الاتجاه من الناحية الأخلاقية.

ثانيًا: مفهوم البيئة عند الأسيزي " منظور عام".

ولد فرنسيس الأسيزي، أحد أشهر القديسين الكاثوليك حوالي (١١٨١-١٢٢٦م)، اسمه العلماني "جيوفاني دي بيترو دي برناردوني" في أسيزي بإيطاليا حوالي عام ١١٨١ م. لعائلة ثرية، وقد امتلك سلسلة من التجارب الروحية عندما كان شابًا ألهمته أن يتبع حياة بسيطة من الفقر والتسول والوعظ بالإنجيل المسيحي.(٣٨) كان فيلسوفًا وواعظًا وشاعرًا وصوفيًا ومحبًا للطبيعة وراهبًا كاثوليكيًا. أكدت كتاباته أن قلة التعاطف مع الحيوانات تؤدي إلى قلة الرحمة تجاه البشرية: "إذا كان لديك رجال يستبعدون أيًا من مخلوقات الله من ملجأ الرحمة والشفقة، فسيكون لديك رجال سيتعاملون بالمثل مع أقرانهم. لذلك يجب أن تبدو هذه الكلمات الحكيمة محققة في العالم الحديث الذي يقتل عشرات المليارات من الحيوانات سنويًا، وفقًا لكتاب "اليوجا الغذائية: تغذية الجسم والعقل والروح" Food Yoga: Nourishing the Soul. الذي يؤكد أن الموقف الفظ وغير المبالي تجاه الحيوانات يمكن أن يكون سببًا جذريًا لعدم المبالاة بحقيقة أن ما يقرب من

38 - Lora Stone: Religion and Environmentalism: Exploring the Issues, ABC-CLIO, California, 2020, p.60.

مليار شخص يعانون من الجوع كل يوم.[٣٩] وتوفي فرنسيس في ٣ أكتوبر ١٢٢٦م في أسيزي. أعلن البابا غريغوري التاسع قداسة فرنسيس عام ١٢٢٩م. ويحتفل الروم الكاثوليك بعيده في ٤ أكتوبر كل عام.[٤٠]

استنادًا إلى روايات مكتوبة عن حياته، بالإضافة إلى قصص وأغاني المتجولين في أوروبا في العصور الوسطى، كان فرنسيس صوفيًا وصانع سلام متفانيًا ومحبًا للحيوانات والعالم الطبيعي. كان ملتزمًا أيضًا بالوعظ بلغة العامة، وكان مهتمًا للغاية بأولئك الذين يعانون من الفقر أو المرض أو الموت. كان والده تاجر أقمشة ثري في أسيزي، وكانت والدته من منطقة بروفنسال في فرنسا، وكان كلاهما يمتلك مسكنًا فارهًا، [٤١]مما ساعد على توفير حياة مرفهة له. وفي أواخر شبابه أو في بداية مرحلة البلوغ ورد أنه عانى من مرض خطير شهد خلاله تحولًا روحيًا أدى به إلى رفض ثروة والده والطبقة الاجتماعية. تضمن هذا الرفض إعطاء بعض أموال والده للفقراء، والسير في شوارع أسيزي حافي القدمين أثناء الوعظ بالإنجيل.[٤٢]

هناك العديد من الأحداث المذكورة في سيرته، التي تعكس تقاربه مع كل خلق الله ومخلوقاته، بما في ذلك وعظه للطيورsermon for birds وصنع السلام مع ذئب جوبيو Wolf of Gubbio، والأغنية الدينية نشيد المخلوقات The Canticle of All Creatures، والمعروفة أيضًا باسم نشيد الشمس، التي كتبها فرنسيس نفسه، تشير أيضًا إلى تقارب عميق مع البيئة الطبيعية من خلال مدح الله، الذي يوصف مجده بأنه ظاهر في الشمس، وعناصر النار والماء والقمر والنجوم والريح و "الأخت الأم الأرض" والأخت

39 - Don H. Corrigan: American Roadkill: The Animal Victims of Our Busy Highways, McFarland, U.S.A, 2021, p.201.

40 - J. Gordon Melton: Faiths Across Time: 5,000 Years of Religious History [4 Volumes]: 5,000 Years of Religious History, ABC-CLIO, U.S.A, 2014, p.805.

41 - Lora Stone: Op. Cit, p.60.

42 - Ibid: p.61.

الجسد الفانية.[٤٣] توجد العديد من القصص عن فرنسيس باعتباره الراهب الرحيم الذي رفض الثروة لصالح التجوال في الريف والتفاعل مع الطبيعة والتعامل مع جميع مخلوقات الله باعتبارهم متآخين روحيًا، وقد أدت تلك الروايات إلى ظهوره كأيقونة بيئية دينية في العصر الحديث.[٤٤]

وهناك مجموعة رائعة من المواد التي تربط القديسين المسيحيين بالحيوانات. منها ما هو مشهور مثل قصص القديس فرنسيس الأسيزي وهو يبشر الطيور، والقديس أنطونيوس بادوا St. Anthony of Padua (١١٩٥– ١٢٣١م) وهو يكرز للأسماك. وهناك قصص أقل شهرة، على سبيل المثال: القديس كولومبا والقديس بريندان ووحش البحر. رغم ذلك رفض معظم العلماء واللاهوتيين هذه الثروة المادية واعتبروها أسطورة أو فولكلورًا، رغم أهميتها، التاريخية واللاهوتية، في عدة جوانب، منها:

أولاً، إنها شهادة على تقليد إيجابي واسع الانتشار داخل المسيحية ربط الروحانية بالاحترام الخيري والحساس تجاه الحيوانات. **ثانيًا**، على الرغم من التقاليد السلبية داخل المسيحية التي قللت بشدة من مكانة الحيوانات، واعتبرتها، في أسوأ الأحوال، أدوات غير عقلانية للشيطان، توضح الأدبيات عن هؤلاء القديسين عناية الله الخيّرة تجاه المخلوقات غير البشرية والأصل المشترك لجميع أشكال الحياة في الله. **ثالثًا**، بسبب هذا الأصل المشترك في الله، يترتب على ذلك بالضرورة وجود علاقة قرابة بين البشر وغير البشر. لذلك قام فرنسيس بتسمية المخلوقات باسم الأخ أو الأخت؛ لأنه كان يعلم أن لها نفس المصدر مثله.[٤٥]

ولم يكتفِ فرنسيس بإظهار احترامه الكبير للمخلوقات من خلال وعظه لهم وعاطفته الصادقة تجاههم، بل أظهر مدى تقديره لهم في الطريقة التي طبق بها معايير

43 - Ibid: p.61.
44 - Ibid: p.61.
45 - Marc Bekoff: Encyclopedia of Animal Rights and Animal Welfare, 2nd Edition [2 volumes]: Second Edition, ABC-CLIO, U.S.A, 2010, p. 477.

السلوك النبيلة عليهم، في معتقداته حول الاستخدام الصحيح لفضل المخلوقات كمصدر للغذاء، وفي تجاربه التأملية وسط أمجاد الخليقة.(٤٦) وقد تحدث عن "السماوات" و "الأرض" و "العالم" و "كل المخلوقات التي تحت السماوات. ولا تنبثق المصطلحات – بل وجهة نظره بالكامل – من المفهوم الحديث للطبيعة باعتبارها الطبيعة المعقدة، التي تعني مجموعة من القوانين العلمية التي تحكم الكون، أو تجسيد هذه القوانين، ولكن من المصطلحات والمفاهيم التي وجدها في الكتاب المقدس لفولغاتا Vulgata، وخاصة في المزامير والأناشيد الدينية لمتطلبات الليتورجية (الصلاة) التي كان يتلوها يوميًا.(٤٧)

وقد أظهر فرنسيس الترابط الكوني بين جميع المخلوقات، ولم يتردد في قوله إنه يحركه الحب. في نشيد المخلوقات، يمتدح القديس فرنسيس "الإله" من خلال "الأخ الشمس " Sir Brother Sun"، والأخت القمر والنجوم "Sister Moon and the stars"، والأخ الريح "Brother Wind"، والأخت الماء "Sister Water"، والأخ النار "Brother Fire"، والأخت الأم الأرض "Sister Mother Earth". إنه يفعل ذلك بهذه المصطلحات(أخ أخت – أم)؛ لأنه يرى الأسرة البشرية القائمة على الحب، نموذجًا لجميع العلاقات. علاقة المحبة والاعتماد المتبادل التي نتمتع بها مع بعضنا البعض ومع بيئتنا، هذا يقودنا إلى إيجاد حل للمشكلات البيئية الخطيرة جدًا والكارثية التي نواجهها في بعض الأحيان.(٤٨)

انطلاقًا من تلك الرؤية المعاصرة التي تهدف إلى إيجاد مخرج للأزمة البيئية، نجد أن فرنسيس الأسيزي وضع يده على النقطة الجوهرية والتي ستوفر حلاً لتلك الأزمة.

---

46 - Roger D Sorrell: St. Francis of Assisi and Nature: Tradition and Innovation in Western Christian Attitudes toward the Environment, Op. Cit p .66.

47 - Roger D Sorrell: Op. Cit, p .7.

48 - Hans-Joachim Koch, Doris König, Joachim Sanden, Roda Verheyen: Legal Regimes for Environmental Protection: Governance for Climate Change and Ocean Resources, BRILL, Netherlands , 2015, p.p. 322, 323.

وقد تمثل ذلك في نظرته لمفهوم الخلق.(٤٩) فالإنسان ليس عدوًا مميتًا للبيئة الطبيعية بالضرورة، ولكنه جزء منها. في الواقع البشر هم العنصر الوحيد في البيئة الطبيعية الذي يجب أن يدرك كونه جزءًا منها، ويمكنه حمايتها والعناية بها بشكل فعال. بذلك يمكننا أيضًا حماية أنفسنا؛ لأننا جزء من الكل. فلا يخدم البحث العلمي البيئي النشط الذي يتم إجراؤه فهم ما هو جيد للبيئة فحسب، بل ما هو جيد للإنسان أيضًا؛ لأن ما هو مفيد للإنسان مرتبط بما هو جيد للبيئة الطبيعية. (٥٠)

هنا يجب التنويه على ضرورة إعادة النظر في موضوعات فلسفة البيئة من خلال مفهوم الخلق، باعتبار أن جميع ما خلقه الله يحمل أهمية معينة ضمن إطار منظومة الخلق الإلهية الكبرى. وهذا يرسخ لرؤية أخلاقية بيئية واعدة، تعمل على إعادة النظر في الموروث الذي خلفته النظرة المسيحية المتحيزة –في بعض الأحيان– بتمركزها المفرط حول الإنسان. مما يسهم في إدراك حتمية التعايش وفق منطق ترابط المخلوقات جميعًا في ذلك الكون الفسيح. وسنخرج –عن طريق هذه النظرة– بخطاب مقنع حول اللاهوت والأخلاق البيئية المسيحية، من واقع مفاهيم الكتاب المقدس نفسه، ووفق الرؤية التي طرحها فرنسيس في هذا الإتجاه.

ثالثًا: مواقفه تجاه المخلوقات:

يحتوي لاهوت الخلق الفرنسيسكاني على عديد من المصادر اللاهوتية القيمة للأخلاقيات البيئية المعاصرة، من تجارب فردية ذاتية حسية تتعلق بالخليقة. تعتمد على التأمل في نصوص العهد الجديد في ضوء خبرة الخلق، ورؤى لاهوتية كريستولوجية متطورة للغاية.(٥١) وقد ترك فرنسيس وراءه مثالًا لعيش الإنجيل والحب بين جميع

49 - Keith Warner, OFM: Franciscan Environmental Ethics: Imagining Creation as a Community of Care, Journal of the Society of Christian Ethics, 31, 1 (2011): 113-160, p. 144.

50 - Hans-Joachim Koch, Doris König, Joachim Sanden, Roda Verheyen: Op. Cit, p. 322.

51 - Keith Warner, OFM: Op. Cit, p. 145.

المخلوقات. ويكون بذلك قد سبق هو والمدرسة الفرنسيسكانية الاهتمامات البيئية الحديثة، من واقع رؤية لاهوتية قادرة على النهوض بمجال الأخلاق البيئية المسيحية؛ فلطالما اعتبر التقليد الفرنسيسكاني أن كل الخليقة لها أهمية لاهوتية وأخلاقية، وهذا هو أهم إسهاماتها في مجال الأخلاق البيئية، وقد اعتبر التقليد الفرنسيسكاني دائمًا أن للخلق هدفًا دينيًا: إنه يحمل صورة الله. بمجرد أن يُفهم أن الجميع يحمل أهمية دينية، يترتب على ذلك أن المرء يدرك أهمية الخلق من الناحية الأخلاقية. كما يجب أن ترتبط تلك المقاربة الفرنسيسكانية للأخلاقيات البيئية بيسوع المسيح، والكتب المقدسة المسيحية، والتقاليد. من هنا يمكن لهذا النهج أن يخفف من المركزية البشرية الراديكالية للفكر المسيحي المعاصر؛ لأنه يقوض التقسيم الوجودي الحاد بين البشرية وبقية الخليقة الذي يفترضه عديد من المسيحيين المعاصرين.(٥٢) وفقًا لذلك يمكن للتقليد الفرنسيسكاني أن يساهم في مجال الأخلاق البيئية المسيحية؛ لأنه يلهم الأفراد حبًا كبيرًا للخليقة كتعبير عن إعلان الله في العالم.(٥٣)

أما عن مواقف فرنسيس تجاه المخلوقات، فنجد أنه رغم ارتباط عديد من القديسين بحيوانات معينة، فإنه يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالاتجاه الشعبي لبركات الحيوانات. فقد طور علاقة عميقة مع الكائنات الحية من خلال افتتانه بالطبيعة. وجاء إلهامه الرئيسي من الحيوانات. وكان ينظر إلى الحيوانات على أنها أمثلة حية على النقاوة الروحية، ومباركتها، والسعي لفهمها والتواصل معها. وقد عبّر عن حبه لجميع المخلوقات، وخاصة الطيور، من خلال أشهر أناشيده "نشيد الخلائق" و "عظة الطيور".(٥٤) وفي إحدى الليالي أنشد أهم وأشهر كتاباته، التي أحدثت أثرًا بالغًا في مجال فلسفة البيئة، وأصبحت أيقونة

52 - Ibid: p. 145.
53 - Ibid: p. 146.
54 - Diana L. Guerrero: Blessing of the Animals: A Guide to Prayers & Ceremonies Celebrating Pets & Other Creatures, Sterling Publishing Company, Inc., New York, 2007, p.14.

يقتنيها محبي البحث البيئي، وكأنه ينثُر شعرًا، وهو ما عُرف باسم نشيد المخلوقات، أو نشيد الأخ الشمس، حيث قال:

يا إلهي الطيب الكلي القدرة والشامخ
إليك تعود المدائح والمجد والعفة وكل الخير
إنها تليق بك أيها الشامخ، أنت وحدك،
لا يستحق بشر أن يبوح باسمك لك الحمد، يا إلهي،
مع كل خليقتك، خصوصا السيد الأخ الشمس،
ذلك الذي يأتينا بالنهار فتمنحنا من خلاله الضياء،
وهو جميل ومشع بألق عظيم،
إنه رمزك إلينا، يا ذا الشامخ!
لك الحمد يا إلهي للأخت القمر والنجوم،
لقد خلقتها لامعة، ونفيسة ومتألقة في السماء لك الحمد،
يا إلهي للأخ الريح
والهواء والغيوم والسكون وكل المناخ الذي أكرمتنا إياه.
لك الحمد يا إلهي، للأخت الماء،
تلك المتواضعة والعزيزة والنقية.
لك الحمد، يا إلهي، للأخ النار،
ذلك الذي أضأت به الليل،
هو الجميل القوي المرح لك الحمد،
يا إلهي، للأخت الأم الأرض،
تلك التي تدعمنا وتحملنا على صدرها
وتنتج الثمار الغزيرة والزهور والأشجار.

لك الحمد والخير يا إلهي، أشكروه واعبدوه بتواضع جليل.(٥٥)

لقد أدرك فرنسيس أن الحيوانات تخبرنا عن أنفسنا وعن الإله. فروح الله في كل شيء، ويمكن رؤية آثاره على كل مخلوق. الشكل الداخلي غير الملموس هو الكمال الإلهي الذي ترتبط به كل الأشياء وتتدفق من المصدر الواحد المنتشر.(٥٦)

كما تشهد عديد من الأساطير الأخرى للقديس فرنسيس على حبه للحيوانات. ففي إحدى المرات منحه أحد الصيادين سمكة تنش أو السمكة الطبيبة. لقد شعر بالأسف الشديد على السمكة لدرجة أنه أعادها على الفور إلى الماء. وكلما سنحت له الفرصة للقيام بذلك أطلق سراح الأسماك التي تم صيدها، محذرا الأسماك من توخي مزيد من الحذر حتى لا يتم صيدها مرة أخرى.(٥٧) كما أن قصة القديس فرنسيس والحمائم لا تقل إثارة عن بقية القصص، عندما التقى بصبي اصطاد بعض الحمام، أقنعه بإعطائه الطيور والتفت إلى الحمائم بالكلمات التالية: `` يا أخواتي الحمائم الصغيرات، لماذا أنتي بسيطة جدًا، بريئة جدًا، وعفيفة جدًا؟ هل سمحتم بالقبض على أنفسكم؟ إني أخلصك من الموت وأجعل أعشاشك لتكبر وتتكاثر حسب أمر الله. ويُقال إن فرنسيس اشترى الحملان مرارًا وتكرارًا لإنقاذها من الذبح.(٥٨) في الأيام التي ورد فيها أن فرنسيس كان لديه علاقات خاصة مع السيكادا والديدان والضفادع والعديد من أنواع الطيور، تحدث إلى الحيوانات في رحلاته، وأعاد الأسماك إلى الماء، وقام بإنقاذ بعض صغار السلاحف من الفخ وعمل أعشاش لها.(٥٩)

---

٥٥ - نيكوس كازنتزاكيس: (فقير الله) القديس فرنسيس الأسيزي: ترجمة سهيل نجم، دار التكوين، سوريا، ٢٠١٠م، ص ٤٧٨.

56 - Mark G. Boyer: An Abecedarian of Animal Spirit Guides: Spiritual Growth through Reflections on Creatures, Wipf and Stock Publishers, U.S.A, 2016, p.13.

57 - László Erdős: Green Heroes: From Buddha to Leonardo DiCaprio, Springer Nature, German, 2020, p. 13.

58 - Ibid: p. 13.

59 - Linda Kalof: Looking at Animals in Human History, first published, Reaktion Books, London, 2007, p.68.

من ناحية أخرى، كانت طريقة فرنسيس اللطيفة والحنونة مع الحيوانات محببة بلا شك. على سبيل المثال، عندما صادف صرصور الليل، داعبه بإصبعه وقضى ما يقارب ساعة مبتهجة في الاستماع إليه، لا يمكن للمرء أن يتجنب الانجذاب إليه والرغبة في محاكاة بساطته الطفولية. وبالمثل، عندما يعثر على أرنب عالق في فخ، قام بتدليله بحنان ثم أطلق سراحه.(٦٠) وقد اهتم فرنسيس بمخلوقات تبدو مهمشة: "فحتى تجاه الديدان الصغيرة كان يتوهج بحب فائق تجاهها؛ لذلك اعتاد أن يلتقطها من الطريق ويضعها في مكان آمن، حتى لا تسحقهم أقدام المارة ".(٦١) وقد أدت تلك المواقف إلى تحوله إلى رمز قوي للعديد من محبي الحيوانات في الأوقات الحديثة.(٦٢) لذلك جادل فرنسيس بأن واجبنا الأول تجاه الحيوانات هو عدم إلحاق الأذى بها. علاوة على ذلك، يُنسب إليه الفضل في ادعائه أنه إذا تم استبعاد الحيوانات من دائرة التعاطف والشفقة لدى الإنسان، فسيستبعد البشر أيضًا البشر الآخرين من تلك الدائرة.(٦٣)

في كل هذه القصص المحببة جدًا، رأى فرنسيس الطيور أو الحملان أو الأرانب نوافذ على جمال الله حقًا، والطبيعة كلها، حتى الطبيعة غير الحية، تخبرنا عن الله.(٦٤) وبسبب إيمانه بأن الحيوانات من صنع الله تمامًا مثل البشر، فقد أدرج الحيوانات في مشهد ولادة يسوع. واليوم يظل القديس فرنسيس مصدر إلهام للمسيحيين الذين يعملون لصالح الحيوانات. وتقيم عديد من الكنائس الآن مباركة طقوس الحيوانات في ٤ أكتوبر، وهو عيد

60 - Nigel Harris: The Thirteenth-Century Animal Turn: Medieval and Twenty-First-Century Perspectives, Springer Nature, German, 2020, p. 88.

61 - Alexander Pschera: Animal Internet: Nature and the Digital Revolution, New Vessel Press, New York, 2016, p.147.

62 - Nigel Harris: The Thirteenth-Century Animal Turn: Medieval and Twenty-First-Century Perspectives, Springer Nature, German, 2020, p. 88.

63 - Linda Kalof: Op. Cit, p.68.

64 - James V. Parker: Animal Minds, Animal Souls, Animal Rights, Op. Cit, p. 99.

ذكرى القديس فرنسيس. في هذا الحدث، يجلب أعضاء الكنيسة حيواناتهم الأليفة إلى الكنيسة، حيث يباركهم الكاهن الراهب.(٦٥) ومن التعبيرات الرائعة التي ذكرها فرنسيس، تشبيهه للعلاقة بين التربة وروح الإنسان، حينما قال: إن التربة وروح الإنسان هما شيئان متشابهان تمامًا. كلاهما يعطش، وكلاهما ينتظر أن تنفتح السماء لتطفئ الظمأ.(٦٦) مستخدمًا لغة رمزية ذات دلالة كبيرة، ففي إحدى رحلاته مكث في برج قديم متداع. وكان المكان ينعم بسكينة حيث تشعر فيه أن التربة قد أنجزت وظيفتها وهي تستريح الآن بقناعة تامة. قال فرنسيس متحدثًا إلى صديقه ليو، حينما أثار إعجابهم ذلك السهل الذي في الأسفل، يا أخي ليو: "إنها تذكرني بأيقونة مقدسة رأيتها مرة في رافينا. تمثل هذه الأيقونة المذهلة، مريم العذراء المقدسة. وأية أعجوبة هذه يا أخي ليو أم الرب وهي مستلقية على فراشها معقودة الذراعين، ووجهها بأكمله يبتسم باطمئنان وعلى رأسها خمار أرجواني ويداها العجوزان قد تخددتا من العمل المنزلي، ووجنتاها ذابلتان، وقدماها قد أتلفتهما الصخور والأشواك التي في الأرض. ورغم ذاك فبإمكانك أن تلاحظ ابتسامة الفرح الداخلي الخفية تتدفق من فمها وتصب على حنكها وصدغها وجفنيها. لقد قامت بواجبها وهي الآن في سكينتها. أي واجب؟ إنها تلك التي أنجبت منقذ العالم. والآن وأنا أحدق في هذا السهل المثمر المستكين، يا أخي ليو، أقول لنفسي: تنام الأرض العذراء بذات الطريقة في الخريف.(٦٧)

وعندما وجد نفسه وحيدًا سقط على وجهه وبدأ بتقبيل التراب ونادى الرب: "إنني أعلم أنك في كل مكان. تحت أية صخرة ارفعها، سوف أجدك في أي بئر أنظر فيه، سوف أرى وجهك، خلف أية برقانة أحدق فيها، سوف أجد أسمك محفورًا. ولذلك فأنت موجود في هذا الكهف أيضًا، وفي فم الأرض التي أضغط عليها شفاهي في هذه اللحظة.

---

65 - Margo DeMello: Animals and Society: An Introduction to Human-Animal Studies, Op. Cit, p. 319.

٦٦ - نيكوس كازنتزاكيس: المرجع السابق، ص ٣٥٣.

٦٧ - نيكوس كازنتزاكيس: المرجع السابق، ص ٣٦١.

أنت تراني وتسمعني وتشفق علي.(٦٨) إن التبجيل العميق لـــ "أخت أو الأم الأرض، والمدائح الأخرى المتواضعة جدًا التي يتم تقديمها لمخلوقات مختلفة في نشيده، تعكس حياة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالأرض وتقدر بشدة التجارب البسيطة وسط العالم الطبيعي التي يتم سردها في الوثائق. على سبيل المثال، في إحدى المرات نشر فرنسيس وأتباعه عشاءهم المتواضع على صخرة مسطحة بالقرب من جدول. وأحداث أخرى عندما جلس الأخوان حول نار المخيم معًا، كما اعتادوا. مدح فرنسيس "الأخ النار Brother Fire، "الذي من خلاله تضيء الليل" في النشيد الديني.(٦٩) وكان يرى أن الحشرات مبعوثو الرب، أعظم الملوك، الذي يقيم عرسًا في السماء، ويبعثهم بالدعوات إلينا: "تحايا من الملك العظيم.(٧٠) وبينما كان يتكلم، قفز أرنب صغير من تحت العشب، رفع أذنيه والتفت فرآه. لم يخف، بل نظر إليه بهدوء واتكأ على ساقيه الخلفيتين كأنه كان ينوي أن يرقص. وسرعان ما اختفى في الدغل. ثم سأل فرنسيس صديقه: " هل رأيت يا أخي أخانا الأرنب الصغير الذي كان سعيدًا برؤيتنا، لقد لوح بساقية الصغيرتين وحيانا إشارة طيبة.(٧١) أيضًا ذات مرة، مر ثوران مقدسان يطوحان برقبتيهما اللامعتين بخجل ذات اليمين وذات الشمال، ويلعقان منخريهما الرطبين بلسانيهما الخشنين. كانا أبيضين ناصعين وسمينين، برقاب قوية متوجين بآذان قمحية، تفاجأ فرنسيس، واندفع كي يستمتع بمنظرهما ومد يده ليحييهما وتمتم: "أية نبالة وأي محاربين، هؤلاء هم كادحو الرب"! وعند الوصول اليهما طبطب على أردافهما البيضاء الثلجية العريضة. التفت الثوران وحدقا فيه برقة وكرم مثل البشر. قال ضاحكًا: "لو أنني كنت الخالق لكنت قد وضعت الثيران في الفردوس مع القديسين.

---

٦٨ - نفس المرجع: ص ٨٨.

69 Roger D Sorrell: St. Francis of Assisi and Nature: Tradition and Innovation in Western Christian Attitudes toward the Environment, Op. Cit p .43.

٧٠ - نيكوس كازنتزاكيس: المرجع السابق، ص ٢٦.

٧١ - نيكوس كازنتزاكيس: المرجع السابق، ص ١٤٨.

هل يمكن أن نتخيل الفردوس من دون حمير ولا ثيران ولا طيور؟ أنا لا أستطيع. فالملائكة والقديسون ليسوا كافين. كلا لابد للفردوس من حمير وثيران وطيور".(٧٢)

وفي إحدى المواقف انحني كي يلتقط زهرة الربيع الجميلة من حافة الطريق. ولكنه حالما مد يده مسك عن ذلك فجأة، وقد غير رأيه "لقد بعثها الله كي تزين الطريق. يجب أن لا نمنع مخلوقات الله من تأدية واجبها. وحينما قال ذلك لوح بيده إلى زهرة الربيع وكأنه كان يودع أخته الحبيبة.(٧٣) وهذا نوع من الجمالية الفريدة. لقد كانت إحدى نتائج التفاني الفرنسيسكاني الجديد للأشياء التي تقلد المسيح بطريقة ما، وبالتالي فهو مثال ممتاز للمثل الأعلى العام للنظام الذي يؤدي إلى استجابة مبتكرة محددة للبيئة الطبيعية.(٧٤)

وأثناء سفره بحرًا كانت السفينة تتقافز وتتمايل كأنها آيلة للغرق. ذهب فرنسيس نحو المقدمة، حيث ركع بين الأشرعة المطوية وراح يصلي. امتد رأسه نحو البحر، كان ينشد بصوت متذبذب مسحوق، مخاطبًا المياه: تذكري المسيح، الذي دعاك يوما لأن تسكني، فأطعته وسكنت. بسم المسيح، أناديك أنا، خادمه المتواضع، وأستحلفك الآن أن تسكني". وكان للماء صوت عاصف، والناس تصرخ داخل السفينة، وبين الناس والبحر الهائج يتوسط فرنسيس برقة وخضوع، مناشدًا المياه أن تستكين. كان فرنسيس يصلي كأن البحر كان يسمع كلماته، وكأن الرب قد سمعها أيضًا وكذلك الموت؛ كلهم انتصبت آذانهم لينصتوا. ثم أقسم بالروح التي سوف يسلمها إلى الرب، وحصلت المعجزة. فقد سكن البحر، في أول الأمر وخفض من صخبه قليلًا، ولكنه ظل غاضبًا، محاولًا تجنب الخضوع، ولكنه أذعن شيئًا فشيئًا، حتى صار رقيقًا، وعند الليل لم يعد يضرب السفينة بهوس، بل أحاطها بسلام متواضع رقراق. هنا يكمن السر، فالروح أقوى من البحر، وأقوى من الموت، وقادرة على أن تنسلخ من جسد الإنسان وتدعم العالم المنهار.(٧٥)

---

٧٢ - نفس المرجع: ص ٦٧.

٧٣ - نفس المرجع: ص ص ٧٦، ٧٧.

74 - Roger D Sorrell: Op. Cit, p .48.

٧٥ - نيكوس كازنتزاكيس: المرجع السابق، ص ص ٢٦٣، ٢٦٤.

أما عن أكثر قصص فرنسيس شهرة مع المخلوقات، فتمثلت في عظته إلى الطيور. وهى إحدى الحوادث الأولى التي تُظهر إخلاص فرنسيس للحيوانات من تجاربه المبكرة في ممارسة العزلة وتشبه إلى حد كبير القصص التي رُويت عن الزاهدين الأوائل."(٧٦) إن الحادثة الأولى والأكثر دراماتيكية التي أوضحت التأثير الإنتاجي العميق للتفاعل بين المُثُل التقشفية والإنجيلية على موقف فرنسيس تجاه الخلق وقعت في لحظة حاسمة. في هذه الحالة من الحماسة الإنجيلية الشديدة، واجه بعض الطيور في حقل بالقرب من بيفانيا، ووعظهم عظته الشهيرة للطيور.(٧٧)

وقد حدث ذلك أثناء تنقلاته حين وصل إلى احدى المدن الصغيرة جلس على جانب حاد من جبل صخري. ثم نظر حوله وتحسر بعمق، ثم تفوّه بكلمات تفوح حبًا وتقديرًا وتعاطفًا نحو البيئة، قائلًا: " لابد أن تكون الفردوس هكذا ولا نبحث عن شيء أكثر من هذا. إن هذا كاف لروح الإنسان وأكثر من كاف. حينها سمع زقزقة كثيرة تعلوه، ثم نظر إلى الأعلى، كان سرب من السنونوات يطير باتجاه شجرة الدلب. كانت أعشاشها هناك، وهي عائدة إليها لقضاء الليل، حطت على الأغصان ثم انتشرت في الحديقة وراحت تنظر بسعادة قبل أن تلجأ إلى بيوتها الصغيرة كي تضع رؤوسها على صدورها الملساء وتسلم أنفسها للنوم. تقدم فرنسيس ببطء نحو الماء الجاري، الذي كان عند تجمع الطيور ومد يده ليحيي الطيور.(٧٨) وقال لصديقه: "ابق حيث أنت يا أخي، لا تتحرك فأنت تخيفها وما دمت لا أحمل معي قمحًا فلسوف أغذيها بكلمة من الرب كي تسمعها، وحين التفت إلى الطيور، انحنى فوقها وراح يغطيها ناشرًا ذراعيه، قائلًا: إخوتي أيها الطيور، إن الرب، أب الطيور والإنسان يحبكم كثيرًا، وأنتم تعرفون ذلك. ولهذا أراكم حين تشربون الماء ترفعون رؤوسكم الصغيرة نحو السماء بعد كل رشفة وتقدمون الشكر إليه، وكذلك تضرب الشمس في الصباح صدوركم الصغيرة فتمتلئ بالغناء وتطيرون من

---

76 - Roger D Sorrell: Op. Cit, p .42.

77 - Ibid: p .42.

٧٨ - نيكوس كازنتزاكيس: مرجع سابق، ص ٢٤٥.

غصن لغصن ترددوا اسم الله الذي بعث الشمس والأشجار الخضراء والأغنية، أنتم تطيرون عاليًا إلى السماء كي تقتربوا منه ويمكنه سماعكم. وحين تمتلئ أعشاشكم بالبيوض وتجلس الأمهات عليها كي تفقس، يغدو الربة طيرًا ذكرًا يحط على الغصن المقابل ويغني لكم ليهون عليكم التعب.(٧٩) وبينما كان يتكلم مر سرب حمام وقال لهم جميعًا:" إخواني أيتها العصافير، أخواتي أيتها الحمامات، قدروا جميعًا أية هبات وهبكم الله إياها : لقد منحكم الأجنحة كي تسافروا بها عبر الهواء وكي تدفئكم عند الشتاء، ولقد نثر أنواع عديدة من الطعام فوق الأرض و الأشجار كي لا تجوعوا، وملأ صدروكم وحناجركم بالأغاني(٨٠). ثم طوت السنونوات أجنحتها ومدت أعناقها إلى الأمام وانصتت بانتباه، والتفت فرنسيس ليحييها. "مرحبًا بأخواتنا السنونوات التي تجلب الربيع كل سنة على الأجنحة النحيلة. في يوم الحساب، يا عزيزاتي السنونوات، أنتن قبل كل الأشياء المجنحة قبل حتى الملائكة مع أبواقها، ستطرن نحو المقابر وتبدأن الزقزقة فوق شواهد القبور، تفنين أنباء البعث. وسيسمعكن الموتى وسيثبون من قبورهم نحو زهور الربيع ليحيوا الربيع الأبدي، ثم ضربت السنونوات ذيولها بسعادة، وهدلت الحمامات واقتربت العصافير من فرنسيس وراحت تنقر رداءه برفق. ورفرف بيده فوق رؤوسها ورسم إشارة الصليب وبارك الطيور. ثم لوح في كل الاتجاهات مودعًا إياها. "لقد حل المساء يا أخوتي من عصافير وحمام وسنونوات، حل المساء فاذهبن للنوم. وإن تلطف الله وأعطاكم القدرة على الحلم فليته يجعلكم ترون سيدة السنونوات تطير فوق أعشاشكم مثل سنونوة ضخمة.(٨١) ثم تجمعت الطيور حول سيقان فرنسيس وتمتم منفعلا: " أخواتي أيتها الطيور، أخواتي أيتها الطيور، نعم، نعم، إنه أنا أخوكم، عائد من إقامته المؤقتة في الجزر البعيدة والغريبة. لقد جئت، الآن على هذا الجبل المقدس، سنعيش معًا في الأخير، وإن أردتم أي شيء فلا بد لكم أن تخبروني وسوف أوصل ذلك إلى الرب، أبينا، وأكون إلى

---

٧٩ - نيكوس كازنتزاكيس: المرجع السابق، ص ٢٤٦.
٨٠ - نفس المرجع: نفس الصفحة.
٨١ - نفس المرجع: ص ٢٤٧.

جانبكم"، ثم حدق طائر الحجل من مكانه بلطف في قدمي فرنسيس ثم أصغى ورأسه مائل مثل البشر.(٨٢)

وفي إحدى المواقف رأى فرنسيس طائرين أسودين ينفضان جناحيهما المبللين، لوح لهما بيده وحياهما. وقال: "هذان هما راهبا مملكة الطيور. انظر كيف يرتديان"! وتنهد قائلًا: آه لو يستطيع الإنسان أن يعلم الطيور والثيران والخراف والكلاب والذئاب والخنازير البرية أن تقول فقط" يارب ارحمنا"! آه لو كانت الخليقة كلها تستيقظ بهذه الطريقة كل صباح، من أعماق الغابة، من كل شجرة وكل اسطبل، من كل فناء تسمع كل الحيوانات تحمد الرب وتصدح" يارب ارحمنا". رغم أن الإنسان هو الوحيد الذي بإمكانه أن يتجاوز طبيعته ويدخل الفردوس. بينما لا تستطيع الحيوانات أن تفعل ذلك؟ لكن لا أحد يعرف مدى رحمة الله".(٨٣) هنا يجدر التنويه على أن كلمات مثل، أنا وأنت، تشهد على إحساسه العميق بمرافقة وأخوة الحيوانات والطيور، حيث يقول: "أخواتي الصغيرات الطيور، أنتم مدينًا لله خالقكم كثيرًا، لذا يجب أن تمدحوه دائمًا وفي كل مكان لأنه أعطاكم ثوبًا مزدوجًا ثلاثيًا. وبعد تذكير الطيور بأن الله قد أعطاها الحرية، وحفظها من الطوفان في الفلك، وأعطاها الهواء للطيران، والطعام والشراب، والجبال والوديان "كملاذ، والأشجار كمنازل، " يقول: يحبك كثيرًا؛ لأنه أحسن معك. ولذلك احذروا، يا أخواتي الصغيرات، من خطيئة الجحود.(٨٤)

من خلال ذلك تعكس تلك العظة موقف فرنسيس الجديد تجاه المخلوقات. حيث تكشف عن مشاعر جديدة من الحب والاحترام المتبادلين بين القديس والمخلوقات. كما قدمت نموذجًا جديدًا للعلاقة بين القديس والخلق – نموذج سيبقى ثابتًا خلال اللقاءات العديدة التي أجراها فرنسيس مع المخلوقات حتى تصل إلى أعظم صيغها عنده في نشيد المخلوقات. وبالمثل عندما وجد وفرة من الأزهار، بشرهم ودعاهم إلى تسبيح الرب

[٨٢] - نيكوس كازنتزاكيس: المرجع السابق، ص ٣٩٤.
[٨٣] - نفس المرجع: ص ١٣٦.
[84] - Charles R. Pinches ،Jay B. McDaniel: Good News for Animals?: Christian Approaches to Animal Well-Being, Op. Cit p. 36.

كأنهم مخلوقات عاقلة. وبنفس الطريقة حث بطهارة بالغة حقول الذرة وكروم العنب والحجارة والغابات وكل الأشياء الجميلة مثل ينابيع المياه والأشياء الخضراء في الحقول والأرض والنار والهواء والريح أن يحبوا الله ويمجدوه عن طيب خاطر. أخيرًا، أطلق على جميع المخلوقات اسم "الأخ"، وبطريقة غير عادية، لم يختبرها الآخرون أبدًا، ميز أسرار المخلوقات بقلبه الحساس.(٨٥)

ورغم أنه قد تم الكشف عن نمط مماثل في جميع قصص حياة فرنسيس الأسيزي، التي ترتبط بحيوانات كثيرة، وعديد في الأعمال الفنية عن حياته تشمل الطيور والذئاب والحمير بصحبته. لكن عظة الطيور تبقى مؤثرة بشكل خاص.(٨٦) حيث توضح بشكل دلالي أن الإنسانية يجب أن تعي حقيقتها الذاتية. وتقدر أن رفاهية المخلوقات جزءًا من التعاليم المسيحية، وتعلن عن القرابة التي لا تنفصم والارتباط بين البشر وإخوانهم من المخلوقات في ظل الله.(٨٧) وقد مثلت عظة الطيور انفجارًا من الإبداع الحدسي الذي دمج بشكل دائم مُثُل فرنسيس العامة لنظامه مع تفسيره للخليقة.(٨٨) لذلك هناك مفاهيم جديدة يمكن أن تحددها خطبة فرنسيس، منها:

(أ) أن هناك نصائح أدبية وردت في الكتاب المقدس، مثل المزمور ١٤٨ و ترنيمة الأطفال الثلاثة في دانيال ٣، ربما ألهمت فرنسيس. (ب) يخاطب الطيور باعتبارها كائنات روحية ذات دلالات رمزية. (ج) الحوادث التي يأمر فيها القديس أو يصادق أو يرمز إلى الطيور. يبدو أنه لا يوجد قديس قبل فرنسيس قد خاطب الطيور كمخلوقات بطريقة التواصل نفسها. نشأت هذه الفكرة في ذهن فرنسيس نتيجة اتحاد تجربة الزهد مع

85 - Roger D Sorrell: Op. Cit, p .68.

86 - David Aftandilian, Marion W. Copeland, David Scofield Wilson: What are the Animals to Us?: Approaches from Science, Religion, Folklore, Literature, and Art, first edition, Univ. of Tennessee Press, U.S.A, 2007, p. 192.

87 - Charles R. Pinches ،Jay B. McDaniel: Op. Cit p. 36.

88 - Roger D Sorrell: Op. Cit p . 60.

حماسته الإنجيلية الجديدة.[٨٩] حيث تحتوي العظة على تعبيرات مشتقة في الأصل من مصادر مسيحية سابقة، ولكنها تخضع لتغييرات كبيرة للغاية وفق الروح الفرنسيسكانية العالية، أو التي تتلاءم مع سياق الأفكار الجديدة التي تمدها أو تكملها بطرق مبتكرة. كما لاحظ كتاب سيرة حياته الأوائل وعديد من الباحثين المعاصرين، أن فرنسيس استمد بعضًا من إلهامه في هذه الخطبة من المزامير والأناشيد الدينية التي كان يتلوها كثيرًا في سياق الطقوس الليتورجية. فقد أخذ فرنسيس النصائح الليتورجية والأدبية البحتة في ظاهرها وبنى عليها ليقدم عنوانًا حقيقيًا للخليقة. وقد احتوت كلماته الافتتاحية على مشاعر تركز على فكرتين موجودتين في مصادر الكتاب المقدس.[٩٠] من واجب المخلوقات أن تمدح الرب: لقد خلقهم وهم يعتمدون عليه طبقًا لمكانتهم الأساسية ضمن تراتبية الخليقة واستمرار وجودهم. وبمقارنة قول فرنسيس "... يجب أن تمدح خالقك كثيرًا ... لقد أعطاك ريشًا لتلبسه، وأجنحة حتى تتمكن من الطيران، وكل ما كان ضروريًا لك"، والعبارات التالية من الكتاب المقدس: باركوا الرب، كل أعمال الرب، غنوا له الحمد ومجدوه عالياً إلى الأبد .... باركوا الرب، يا كل طيور السماء، غنوا له سبحوا ومجدوه عالياً إلى الأبد ... سبحوه يا الشمس والقمر. سبحوه يا جميع النجوم الساطعة! سبحيه يا أسمى السموات. . . . لأنه أمر فخلقوا وأقامهم إلى أبد الآبدين. حدد حدودها التي لا يمكن تجاوزها ". ويستخدم فرنسيس العبارات للتأكيد على مكانة الطيور في الخليقة وعلى فضل الله الخاص الذي تمتعوا به. إنها علامة على مكانة الطيور ومكانتها التي يحظون بها دون جهد. فلديهم مكانهم الخاص ("منزل في الهواء النقي")، ومكانتهم الخاصة عند الله.[٩١]

يسلط هذا التغيير الدقيق الضوء على عنصر جديد أخر في العظة. يصف فرنسيس الطيور بأنها "نبيلة" ويثني عليها. يؤكد ذلك على احترام فرنسيس المتزايد لرفاقه المخلوقات. كل مخلوق له قيمته الخاصة، وطابعه الخاص الذي يجب أن يفتخر بها.

89 - Ibid: p . 60.
90 - Roger D Sorrell: Op. Cit p .64.
91 - Ibid: p . 65.

"ولعل أقرب مواز لهذا هو مدح يسوع للزنابق:" و لكن أقول لكم إنه و لا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها. هناك الاحترام المتبادل والمحبة بين الله والمخلوقات ("... يجب أن تحبه دائمًا")، ومشاعر الاحترام المتبادل والمودة الأسرية بين المخلوقات والبشرية ("إخوتي، الطيور!")، يُظهر تقدير فرنسيس للمخلوقات؛ لأنه يكرز لهم بكلمة الله ويكلمهم، وهم بدورهم يستمعون باحترام شديد.(٩٢)

ومن خلال قياس التأثير الدقيق الذي أحدثه هذا اللقاء على فرنسيس. يتضح أن هذه الحادثة قدمت تحولًا مركزيًا حاسمًا في موقف فرنسيس تجاه الخلق. فقد وسع فرنسيس رسالته الإنجيلية لتشمل كل الخليقة، وليس البشر فقط. كان يكرز للمخلوقات الأخرى بكلمة الله حتى يتمكنوا من المشاركة أيضًا في عالم التناغم الرسولي الذي كان فرنسيس يأمل أن يعيده بين البشر. وكان لقاء العظة هو العامل الذي دمج افتراضات فرنسيس حول الخلق مع مُثله الرسولية العامة. وأنتج التفاعل الديناميكي بينهما توليفة جديدة، ونظرة جديدة للخلق، والتي عززت الأهداف الفرنسيسكانية الأكثر عمومية في الوقت نفسه.(٩٣)

أما القصة الأخرى التي كان لها تأثير كبير في مسار فلسفة البيئة والتعامل مع الحيوان بطريقة مختلفة، والتي لا تقل شهرة عن قصته مع الطيور، فهي التي تتعلق بحواره مع ذئب جوبيو: الذي التهم الحيوانات والبشر على حد سواء، وكان يُخشى بشدة من قبل مواطني مدينة جوبيو، حينها واجه فرنسيس الذئب و أبرم صفقة معه. وحينما تواصل معه أخبره الذئب أن السبب الوحيد وراء لجوئه إلى القتل هو الجوع، حينها أكد فرنسيس للذئب أنه إذا امتنع عن المزيد من القتل، فإنه وأهل المدينة سيضمنون له الطعام لبقية حياته.(٩٤) وأخبر فرنسيس نفسه عن تلك القصة راويًا لأحد أصدقائه أن ذلك الذئب اعتاد دخول الحظيرة واصطياد الخراف، لقد كان يدمر القرية. حتى شعر بالأسف على

92 - Roger D Sorrell: Op. Cit p .66.
93- Roger D Sorrell: Op. Cit p .67.
94 - Linda Kalof: Looking at Animals in Human History, Op. Cit p.68.

سكان القرية وذهب إلى الغابة؛ محذرًا الذئب باسم الله أن لا يأتي ليأكل أيا من الخراف بعد الآن.(٩٥)

وفي الحقيقة تتبع هذه الحكايات تقليدًا مهمًا لسير القديسين. حيث يعالج فرنسيس القطيعة بين البشرية والوحوش. كما يمتلك جرأة إحساس القرابة لدى فرنسيس بالحيوانات والطبيعة تكملها نظرته للعالم الطبيعي كمجتمع رحب، تدعمه محبة الله، تربطه شبكة من التواصل بين الأنواع الحية والعناصر الطبيعية للخلق. فإن الجوانب الأكثر إثارة للإعجاب في رؤية فرنسيس تكمن في افتراضاته حول قيمة الخلق، والعلاقات المعقدة للاعتماد المتبادل للخدمات المشتركة بين المخلوقات.(٩٦)

من هنا يجب أن يستفيد كل منا أخلاقيًا من هذه القصة، إحدى تلك الأخلاقيات تتمثل في استبدال العدائية بين الإنسان والحيوان من خلال تقديم الاحترام للحيوانات ومن ثم إيجاد لغة تفاهم مشتركة.(٩٧) لذلك نجد أن التقليد السردي لحديث فرنسيس إلى الحيوانات قد شكل ما يسمي التحوّل التعاطفي. فإن كنا لا نستطيع إقامة تكافؤ أو مساواة بين الأشخاص والحيوانات، فيمكننا على الأقل ترجمة مخاوفهم.(٩٨) فالتعاطف هو الفعل العاطفي للرؤية من وجهة نظر أخرى وتجربة خيالية لأفكارها وعواطفها ومآزقها ". هذا شيء مشابه لما حاوله فرنسيس مع الذئب. تقدم تلك الترجمة التعاطفية فهمًا للتعاطف الذي يوسع العلاقات العاطفية إلى غير البشر وأكثر من البشر". تُظهر نسخ قصص فرنسيس التي تم تناقلها، الحدود العاطفية لكيفية تخيل الناس للعلاقات بين الإنسان والحيوان في التقاليد المسيحية وفي عالم ما بعد المسيحية. في الوقت نفسه تم رسم الخطوط العريضة

---

[٩٥] - نيكوس كازنتزاكيس: مرجع سابق، ص ص ٢٥٤، ٢٥٥.

[96] - Charles R. Pinches ،Jay B. McDaniel: Op. Cit p. 36.

[97] - Ben Isacat: How to Do Animal Rights, third edition, Lulu.com, U.S.A, 2014, p. 148.

[98] - Gregory Stephens: Trilogies as Cultural Analysis: Literary Re-imaginings of Sea Crossings, Animals, and Fathering, first published, Cambridge Scholars Publishing, England, 2018, p. 119.

لنموذج جديد في التقليد الفرنسيسكاني. سواء من خلال إعادة التشريع أو الترجمة أو أي طريقة أخرى للتعبير عن الهوية، هناك سوابق تاريخية للحجة القائلة بأنه يمكننا تكوين مجتمعات عاطفية أكثر شمولاً وتوسيعها والحفاظ عليها. وإقامة علاقات تعاطفية بين الإنسان والحيوان.(٩٩) وهناك كثير من الذين لم يدرسوا المسيحية بدقة قد هاجموها؛ باعتبارها مفلسة من الناحية الجمالية. لكن بالنظر إلى بعض عناصر التفكير الكاثوليكي في العصور الوسطى، نجد أنها قد تكون مفيدة عندما نفكر في مسؤولياتنا الأخلاقية تجاه الحيوانات والخلق بشكل عام. وقد تمثل موارد مهمة لتعزيز الرعاية المسؤولة للحيوانات أو النظام البيئي.(١٠٠)

إن إحساس فرنسيس المتدفق بالقرابة الحميمة مع الحيوانات وعناصر الطبيعة يكمله بشكل جيد رؤية توما للإنسانية بوصفهم شركاء في مجتمع واسع، لكن إصرار فرنسيس القوي على تسمية الحيوانات والطبيعة عبر لغة شخصية هو ما يسترعي الانتباه في الارتباط بالحيوانات. إن طريقته في تسمية الطبيعة والحيوانات كـــ "أخ" و "أخت" تزيد من الوعي بمسؤوليتنا تجاه تقييد بعض ممارساتنا الاستهلاكية والإنتاجية الحالية التي تؤدي إلى إضعاف الخليقة وإضعاف استقرارها وتعريض جنسها للخطر. وبالمثل فإن تأكيد توما على أولوية الصالح العام على الصالح الخاص – مجرد المصلحة الفردية – يمكن أن يُشعر المسيحيين بمسؤوليتهم تجاه الحيوانات وبقية الطبيعة. إنه يتحدث عن خير عام أعلى من خير مجتمع أو دولة بشرية، أي خير نظام الكون.(١٠١)

حيث يقدم فرنسيس وتوما الأكويني تفسيرات لحياة الحيوان وخلقه والتي تقف في تناقض ملحوظ ضد ممارسة وحشية الآلة والرؤية التكنوقراطية الحديثة للطبيعة كمجال للأشياء أو مجرد موارد يمكن تشكيلها واستخدامها. يُظهر فرنسيس وتوما جيدًا كيف يمكن حشد العناصر الأساسية في الكاثوليكية في العصور الوسطى اليوم لتقديم تحدٍ دعوي

99 - Gregory Stephens: Op. Cit, p 120.
100 - Charles R. Pinches ،Jay B. McDaniel: Op. Cit, p.39.
101 - Charles R. Pinches ،Jay B. McDaniel: Op. Cit, p.39.

لأولئك الذين يواصلون تفسير الحيوانات على أنها أشياء تفتقر إلى القيمة الجوهرية، ولا قيمة لها إلا في خدمتهم للبشر، ومنقطعة عن محبة الله، والنعمة والعناية. ومن الأفضل لأولئك الذين يرفضون آراء فرنسيس على أنها ساذجة ومشوبة بـــ "التصوف الطبيعي" وآراء توما باعتبارها مرتبطة بميتافيزيقيا "كلاسيكية" عفا عليها الزمن، أن يعيدوا النظر في آرائهم. والمساعدة بدلاً من ذلك على تبني عقيدة الخلق بجدية أكبر والتفكير بشكل نقدي أكثر في الواجبات التي ندين بها للحياة الحيوانية والطبيعة بشكل عام.(١٠٢)

رابعًا: تأثير فرنسيس الأسيزي في مجال فلسفة البيئة

حاول كثيرون تقييم الدور الذي لعبه القديس فرنسيس الأسيزي كرائد للحركات الخضراء بشكل عام والدفاع عن الحيوانات بشكل خاص. وفقًا للمؤرخ لين وايت، حاول فرنسيس إنزال الإنسان من برجه العاجي المتربع فيه على قمة الخلق، وإقامة ديمقراطية بينه وبين جميع مخلوقات الله. حيث رأى أن جمال الطبيعة يعكس حكمة الخالق. وبالتالي يجب على الناس احترام العالم الطبيعي وحمايته. علاوة على ذلك شدد فرنسيس على القرابة بين جميع المخلوقات، حيث إن الكل قد خلقه نفس الإله. وعليه، دعا جميع الكائنات بإخوته وأخواته. أحب فرنسيس حتى تلك الحيوانات التي يجدها معظم الناس مثيرة للاشمئزاز. فقد كان يحمل ديدان الأرض من الطريق ويعيدها مرة أخرى إلى العشب، حتى لا تُسحق.(١٠٣)

ومن الآثار التي يجب الاستفادة منها، هو أسلوب حياة فرنسيس الخالي من الرغبات المادية وبساطة العيش. فقد كان يرتدي رداءً بسيطًا ولا يحب اكتناز المال. وليس من الضروري محاكاة نمط معيشته بالكامل، لكن المؤكد من أسلوب حياته أن لديه شيئًا يتعلّمه معظم الذين يعيشون في مجتمعات استهلاكية، حيث الرغبة المستمرة في

---

102 - Ibid: p.p 39, 40.

103 - László Erdős: Green Heroes: From Buddha to Leonardo DiCaprio, Op. Cit p.12.

التعايش وإنفاق المزيد والمزيد من المال عامل رئيس في التدمير السريع للمحيط الحيوي.(١٠٤)

وسواء أكان شخص ما يؤمن بالحقيقة الحرفية لأساطير القديس فرنسيس، أم ينظر إليها على أنها ليست سوى حكايات جميلة، إلا أن هناك شيئًا واحدًا مؤكدًا، وهو لابد أن فرنسيس قد شعر بتعاطف غير عادي وقرابة غير عادية مع الحيوانات. يُظهر مثاله بوضوح أن حب وخدمة كل من الله والبشرية لا يمنع من محبة الحيوانات وخدمتها. وهذا هو السبب في أن القديس فرنسيس الأسيزي يعتبر بحق أحد أعظم الشخصيات في تاريخ الدفاع عن الحيوان.(١٠٥)

ومن وجهة نظر اللاهوت الإيكولوجي، هناك أربعة جوانب من خدمته تستحق اهتمامًا خاصًا: الأول: يتعلق بالبساطة. حين تخلى عن ثروة والده وارتدى سترة رثة. محاولاً تقليد يسوع في اهتمامه بالفقراء والمنبوذين. لذلك عاش فرنسيس الفكرة المتجذرة بعمق في الأناجيل بأن الثروة المادية هي عائق للتقدم الروحي. فقد رأى فرنسيس بساطة الحياة كشرط أخلاقي للإنجيل.(١٠٦) والثاني: يتعلق بالقرابة أو (الأخوّة). لقد طبق فرنسيس حرفياً الادعاء بأن الإنجيل يجب أن يكرز به كل الخليقة. كما احتفل بقرابة جميع المخلوقات التي خلقها الإله نفسه، والتي امتد إنجيلها المحبب إلى أصغر ما في الخليقة، سواء أكان حيًا أم غير حي. فالمخلوقات هم رفقاءنا وإخوتنا وأخواتنا، وعلى الرغم من أن فكرة القرابة أو الشركة الكونية متضمنة في الأناجيل، وهي متطلب رئيس من متطلبات عقيدة الله الخالق، إلا أن احترام فرنسيس الكبير للخليقة كان – من حيث اللاهوت التقليدي – نوعًا من الخروج عن التقليد. حيث رأى لاهوت العصور الوسطى فروقًا حادة بين الإنسان والحيوان وكان شديد الازدواجية في تفكيره، مما عمق التناقضات (كما فعلت

104 - László Erdős: Green Heroes: From Buddha to Leonardo DiCaprio, Op. Cit p. 13.

105 - Ibid: p. 13.

106 - Joy A. Palmer, David E. Cooper, David Cooper: Fifty Key Thinkers on the Environment, first published, Routledge, London, 2002, p. 23.

معظم التقاليد) بين الأشياء الأرضية والأشياء الروحية. كان إحساس فرنسيس بالصداقة والقرابة مع المخلوقات الأخرى – على الرغم من تمسكه الشديد بالتعاليم الإنجيلية – مخالفًا بقوة لثقافة عصره آنذاك.(١٠٧) والثالث: يتعلق بالسخاء: فلم يدرك فرنسيس أن هناك ارتباطًا وجوديًا بين جميع المخلوقات بحكم خالقهم المشترك فحسب، بل سعى إلى إظهار هذه الوحدة من خلال أعمال الكرم الأخلاقي. لقد كان يفيض بروح المحبة، لا نحو المعدمين فحسب، بل حتى الحيوانات المهمشة والزواحف والطيور والمخلوقات الأخرى التي ليس لها إحساس. والمفتاح لفهم فرنسيس في هذه المرحلة يمكن العثور عليه في معناه العميق أن البشر مدعوون لتقليد المسيح، ومن ثم كان عليهم أن يعكسوا كرمًا شبيهًا بالمسيح على أقل تقدير. (١٠٨)

أما الجانب الرابع، فهو المتعلق بالاحتفال، فقد رأى فرنسيس عالم الخلق مكانًا للاحتفال، وذلك على النقيض من النظرة الآلية للخليقة التي يتبناها معظم الأفراد. لقد أخذ على محمل الجد تلك الآيات في المزامير التي تتحدث عن مخلوقات تمدح خالقها ورأى في كل شيء، حتى الجماد، استجابة لمحبة الله. إن كتابه الشهير "نشيد للأخ الشمس" هو تجلى عظيم للمخلوقات في مدح خالقها. حيث يُنظر إليه عادة على أنه مادة لاشعورية، فهو يرى الشمس والقمر والرياح والماء والنار جزء من الوعي الكوني الإلهي، وما نشير إليه بـــ "الطبيعة الساذجة" بعيد كل البعد عن السذاجة عنده؛ فهو بليغ في الغناء والشهادة لجمال خالقها. على ذلك يمكن فهم الأهمية اللاهوتية لحياة فرنسيس على أنها تمهيد لحالة السلام داخل الخليقة والتي ستتحقق أخيرًا في نهاية الزمان.(١٠٩)

بالنظر إلى ذلك نجد أن فرنسيس امتلك رؤية حقيقية مقنعة حول الطبيعة الكتابية، حملت طابعًا رمزيًا. حيث ركزت رؤيته على عدة عناصر: ١) محبة الله لجميع المخلوقات، ٢) قرابتنا الوثيقة بالحيوانات والطبيعة، ٣) العالم الطبيعي الذي يُفهم على أنه

107 - Joy A. Palmer, David E. Cooper, David Cooper: Op. Cit, p. 24.
108 - Ibid: p. 24.
109 - Joy A. Palmer, David E. Cooper, David Cooper: Op. Cit, p. 25.

مجتمع من الخلق يتسم بانسجام وتوازن يتحقق من خلال مشاركة أنواع وعناصر متنوعة مترابطة. وقد تجسد ذلك في أكثر كتابات فرنسيس شهرة، "نشيد الأخ الشمس" أو ما يسمى (مرآة نموذج الكمال The Mirror of Perfection "مدح مخلوقات الرب")، تعرض بجرأة واضحة رؤيته الصوفية من خلال تجسيده للعناصر الطبيعية مثل " الأخ أو الأخت الشمس"، الأخت القمر والنجوم الأخ الريح، "الأخت الماء"، و "الأخ النار". كما يقول: "الحمد لك يا ربي من خلال أختنا أمنا الأرض، التي تعولنا وتحمينا، والتي تنتج ثمارًا متنوعة بأعشاب ملونة.(١١٠) لذلك لا عجب أن القديس فرنسيس الأسيزي هو شفيع الحيوانات والمدافعين عنها، يتم الاحتفال باليوم العالمي للحيوان في يوم عيده في ٤ أكتوبر من كل عام. في هذا اليوم، يأخذ المسيحيون حيواناتهم الأليفة إلى الكنيسة لتبارك، ويصلي العديد من المؤمنين من أجل الحيوانات المحتجزة والمشردة. أيضًا هناك عدد لا يحصى من الأحداث العلمانية حول الحيوانات والدفاع عنها في جميع أنحاء العالم في هذا العيد الخاص.(١١١)

وقد أنتجت رؤية فرنسيس مساهمة مهمة في تأسيس عديد من المنظمات الدينية، بما في ذلك المنظمة الدينية التي أصبحت في النهاية "الرهبنة الفرنسيسكانية أو رهبنة الإخوة الأصاغر" (OFM) The Order of Friars Minor (OFM) or Franciscan Friars. استنادًا إلى روايات كتبها معاصروه، يُصوِّر فرنسيس الأسيزي عادةً متظاهرًا سلميًا مع الحيوانات، في نشوة دينية، أو يتصرف كوسيط سلمي أثناء النزاع. وعلى مر القرون، أصبح فرنسيس مرتبطًا بشكل متزايد بحب عميق للبيئة الطبيعية وأعلن رسميًا أنه شفيع الكنيسة الكاثوليكية للحيوانات والبيئة. في الآونة الأخيرة كان فرنسيس الأسيزي مصدر إلهام للجهود البيئية العالمية بين الأديان، مثل إعلانات أسيزي لعام ١٩٨٦م، للمذهب الكاثوليكي الرسمي، ومثل المنشور الثاني للبابا فرنسيس الأول ': Laudato Si

110 - Charles R. Pinches ،Jay B. McDaniel: Op. Cit, p p. 35, 36
111 - László Erdős: Op. Cit p. 13.

On Care of Our Common House في عام ٢٠١٥م.(١١٢) لدرجة أن وصفه المؤرخ لين وايت، في كتابه "العلوم"، بأنه "أعظم ثوري روحي في التاريخ الغربي". وجادل بأن فرنسيس "حاول استبدال فكرة المساواة بين جميع المخلوقات، بما في ذلك الإنسان، بفكرة حكم الإنسان اللامحدود للخلق.(١١٣) في حين رأى البعض أن ما أراده فرنسيس حقيقة هو التأكيد على وجود المساواة بين مخلوقات الأرض: فهو يخاطبهم بسلطة ويطيعون. إنه يركز على وحدة كل الخليقة، ولكن ضمن إطار بشري في الوقت نفسه.(١١٤) وفي عام ١٩٧٩م، أطلق البابا يوحنا بولس الثاني على فرنسيس الأسيزي لقب القديس الراعي للكنيسة الكاثوليكية لعلم البيئة، مما أضفى الطابع الرسمي على التصور العام لفرنسيس باعتباره ناشطًا بيئيًا دينيًا. "على الرغم من أن الرهبنة الفرنسيسكانية "OFM" قد تضمنت تاريخيًا حب الطبيعة خليقة الله واعتبارها جزءًا من ثقافتهم التنظيمية غير الرسمية، وفي عام ٢٠٠٣م تم توجيه أعضاء الرهبنة من قبل قادتهم للمشاركة بنشاط في معالجة القضايا البيئية. ثم بحلول عام ٢٠١١م، ثمّن مكتب (JPIC) Justice, Peace, and Integrity of Creation للعدالة والسلام ونزاهة الخلق الجهود المؤسسية لـــلرهبنة الفرنسيسكانية على قضايا الإصحاح البيئي باعتبارها انعكاسًا مباشرًا لتعاليم مؤسسهم فرنسيس الأسيزي. وقد وضع النظام الفرنسيسكاني العلماني قضايا العدالة البيئية في مقدمة أولوياته بشكل رسمي. كما التزمت منظمات فرنسيسكانية أخرى، أيضًا بدمج العدالة البيئية في مهماتهم إلى جانب التدريب اللاهوتي باعتباره انعكاسًا حقيقيًا لموهبة مؤسسهم.(١١٥) وقد أسهم ذلك في توطيد علاقة راسخة في النظام الفرنسيسكاني تتعلق بالانسجام مع البيئة والسلام في تحقيق الرضى الروحى من خلال تحمل المسؤولية

112 - Ibid: p.60.
113 - Gregory Stephens: Op. Cit p.118.
114 - Gregory Stephens: Trilogies as Cultural Analysis: Literary Re-imaginings of Sea Crossings, Animals, and Fathering, Op. Cit p.118.
115 - Lora Stone: Religion and Environmentalism: Exploring the Issues, Op. Cit p.61.

تجاه البيئة.(١١٦) وأصبحت النظرة الفرنسيسكانية، جزءًا من وحدة متكاملة – مستمدة من مواقف فرنسيس التي لم تنفصل عن تجاربه ومُثُل الحياة النسكية.(١١٧) يأتي هذا كله نتيجة الرابطة الخاصة التي أقامها مع الطبيعة واعتباره الحيوانات مخلوقات ذات أصل إلهي، وهي أدوات الله. فإن كان الاهتمام برفاهية الحيوانات منتشرًا على نطاق واسع في القرون القادمة، فمن الملاحظ أن لدينا بيانًا واضحًا لموقف لا يختلف بأي شكل من الأشكال عن موقف معظم كتاب القرن الثامن عشر حول هذا الموضوع.(١١٨)

من ناحية أخرى، فإن الرأي القائل بأن البشر بحاجة إلى تقليل آثارهم السلبية على البيئة موجود أيضًا، ومشتقة من تعاليم القديس فرنسيس التي تطورت إلى بيئة مسيحية جديدة.(١١٩) وطور اللاهوتيون الفرنسيسكان المعاصرون لاهوتًا متجددًا عن الطبيعة مستندًا في الأصل على موهبة فرنسيس الأسيزي وعمله والنصوص المسيحية ذات الصلة. بالإضافة إلى ذلك اقترحت تعاليم الفرنسيسكان طرقًا للأكاديميين، والقادة، والمؤسسات، والمجتمعات الفرنسيسكانية لاحتضان لاهوت الطبيعة الذي يمكن ممارسته في عملهم وحياتهم اليومية. يُنظر إلى البشر فيه، على أنهم جزء من الطبيعة "منغمسين في العالم الطبيعي الذي يتأثر دائمًا بالمجتمعات البشرية. وبالمثل، يُنظر إلى الزراعة البشرية والتكنولوجيا على أنها قد تكون مدمرة للعالم الطبيعي ويجب تنفيذها بعناية كبيرة . وأصبح لاهوت الطبيعة من المتطلبات الأكاديمية للدارسين الفرنسيسكان، معتمدًا على دراسة متطورة في العلوم الطبيعية أو الاجتماعية، وتعزيز المنح الدراسية متعددة التخصصات والأديان، والعمل مع المنظمات البيئية: والتي يتم من خلالها تشجيع القادة

116 - Ercan Özen, Simon Grima, Rebecca E. Dalli Gonzi: Emerald Studies in Finance, Insurance, and Risk Management - New Challenges for Future Sustainability and Wellbeing, Op. Cit p. 346.
117 - Roger D Sorrell:, Op. Cit p .39.
118 - Linda Kalof: Looking at Animals in Human History, Op. Cit, p.68.
119 - Ercan Özen, Simon Grima, Rebecca E. Dalli Gonzi: Op. Cit p. 346.

الفرنسيسكان المعاصرين على تعزيز الإشراف البيئي بقوة، وتطوير مبادرات الدعوة البيئية. تأسيسًا على روحانية فرنسيس الأسيزي.(١٢٠)

وقد واصل فرنسيس الأسيزي إلهام النشاط واللاهوت والفلسفة والمنظمات والايديولوجيات المؤسسية المتعلقة بالبيئة. ففي عام ١٩٨٦م اختار الأمير فيليب، رئيس الصندوق العالمي للحياة البرية (WWF) (World Wide Fund for Nature) أسيزي بإيطاليا مكانًا لاجتماع الصندوق العالمي للحياة البرية؛ – لأنها مسقط رأس فرنسيس – وقد دشن الاجتماع في ذلك العام تحالف الأديان والحفظ Alliance of (ARC) Religions and Conservation بوصفه نموذجًا للإشراف البيئي، وتم الاعتراف أيضًا بفرنسيس على أنه مصدر إلهام لإعلانات أسيزي: والتي تضمنت رسائل عن الإنسان والطبيعة من البوذية، والهندوسية، واليهودية، والمسيحية ، والإسلام، في الكتيب الصادر عن اجتماع أسيزي عام ١٩٨٦م.(١٢١) بالإضافة إلى المصادر الموجودة في الثقافة الشعبية والبيئية العلمانية، غالبًا ما يُشار إلى فرنسيس على أنه نموذج للعقيدة الدينية الحالية حول العدالة البيئية. في المنشور البابوي لعام ٢٠١٥م Laudato Si's On Care for Our Joint House، الذي كتبه البابا فرنسيس الأول، تم الاستشهاد بفرنسيس الأسيزي ملهمًا للوثيقة. حيث بدأ البابا فرنسيس الرسالة العامة بالإشارة إلى نشيد المخلوقات، وذكر أن "القديس فرنسيس الأسيزي يذكرنا بأن بيتنا المشترك هو مثل أخت نتشارك معها حياتنا وأم جميلة تفتح ذراعيها لاحتضاننا". وقد أشار في كل عناصر الخطاب إلى شفيع علم البيئة، موضحًا أن فرنسيس الأسيزي "يوضح لنا مدى الارتباط والألفة بين الاهتمام بالطبيعة والعدالة للفقراء والالتزام بالمجتمع والسلام الداخلي" و "يدعونا لنرى الطبيعة بوصفها كتابًا رائعًا يخاطبنا الله فيه ويعطينا لمحة عن جماله وصلاحه اللامتناهي.(١٢٢)

120 - Lora Stone: Op. Cit p.62.
121 - Ibid: p.62.
122 - Lora Stone: Op. Cit p.63.

حتى النقاد الذين ينظرون إلى المسيحية على أنها ذات مركزية بشرية مجحفة قد استشهدوا بفرنسيس كاستثناء رائع وإيجابي. وبدأت الكنيسة الكاثوليكية نفسها في الاعتراف بأهمية فرنسيس من خلال الإعلان البابوي الأخير باعتبار فرنسيس شفيع علم البيئة. فقد طور رؤية قوية للخلق متجذرة في إحساس قوي بقرابة البشرية الحميمة مع الحيوانات والأشجار والشمس والريح وعديد من العناصر الطبيعية الحية وغير الحية؛ لوصف أوجه التشابه والاختلاف بين البشرية والأنواع الحيوانية الأخرى. يقدم من خلاله فهمًا للإنسانية بوصفها شريكًا في مجتمع الخلق الرحب، وتوفر هذه الصورة العامة الأساس لتوليد تحد دعوي قوي ضد الرؤية التكنوقراطية الحديثة عن الطبيعة باعتبارها مجرد مخزون موارد ومجال للأشياء.(١٢٣) وعندما أعلن البابا يوحنا بولس الثاني عام ١٩٨٠م عن فرنسيس شفيع علم البيئة، لم يكن يفعل شيئًا أقل من الاعتراف بالنداء العالمي لمثاله القوي الصديق للخلق. ومع ذلك فإن التقليد المسيحي الذي جعله مقدسًا، والذي يكرمه الآن ويثني عليه ويدافع عنه، هو نفس التقليد الذي – ليس بدون مبرر – قد تجاهل الاهتمام بالخليقة بشكل واضح، حتى بالنسبة للخليقة. مما ألقى العبء على المسيحية وكونها مسؤولة بشكل مباشر عن الأزمات البيئية الحالية. لكن فهم هذه المفارقة قد يكمن في حياة القديس فرنسيس، من خلال استحضار أهميتها البيئية المعاصرة.(١٢٤)

أخيرًا يمكن القول أن القديس فرنسيس الأسيزي أحد أهم الرواد، الذين أخذوا على محمل الجد التزام دياناتهم بالتعاطف مع الحيوانات. وقد سبق في ذلك منظمات بيئية معاصرة كثيرة.(١٢٥)

123 - Charles R. Pinches ،Jay B. McDaniel: Op. Cit p.35.
124 - Joy A. Palmer, David E. Cooper, David Cooper: Op. Cit, p. 22.
125 - Margo DeMello: Animals and Society: An Introduction to Human-Animal Studies, Op. Cit, p. 319.

خاتمة

توّصل الباحث من خلال دراسة رؤية فرنسيس الأسيزي حول فلسفة البيئة، إلى مجموعة من النتائج، يوجز أهمها في الآتي:

أولا: توفرت لدى فرنسيس رؤية واضحة عن البيئة وأهميتها من منظور ديني لاهوتي، كما حوت نظرته مفردات وعناصر تخص فلسفة البيئة؛ فهو لم يدافع عن الحيوانات فحسب، بل تحدث عن البيئة الطبيعية بجميع مكوناتها، مثل التربة والمياه والريح والنار بل حتى الجمادات.

ثانيًا: يمكن للقديس فرنسيس الأسيزي أن يمثل إلهامًا لحركات الأخلاق البيئية المعاصرة، من خلال الاستفادة من أفكاره حول وحدة الخلق وفكرة المساواة والمحبة والرعاية والقرابة أو التقارب بين الخليقة إجمالاً، وهذا أدعى إلى التفكير في مفهوم الإيكولوجيا المتكاملة، وفق الرؤية التي طرحها الأسيزي. ويمكن اعتبار ذلك بمثابة وجهة نظر بديلة عن الرؤية التي تتبناها المسيحية عند النظر إلى علاقة الإنسان بالطبيعة.

ثالثًا: يرى الباحث أن هناك ضرورة ملحة لإيكولوجية شاملة، لا تستثني الإنسان، بل تعتبره في طليعة الحلول للخروج من الأزمة البيئية الحالية. وهذا ما فعله فرنسيس الأسيزي بالتحديد. فلا يمكننا أن نفهم حبه للحيوانات والأشياء والمخلوقات بصفة منفصلة عن الإطار العام لتجربته الدينية المتكاملة. التي تهدف في المقام الأول إلى الحفاظ والتأكيد على فكرة المساواة من منظور فكرة وحدة الخليقة ذات الأصل المشترك والمنبع الواحد.

رابعًا: باستخدامه لمصطلحات مثل الأخ والأخت في الإشارة إلى المخلوقات المختلفة، أرسى فرنسيس قواعد راسخة عن هذا الإيمان بالوحدة والمساواة بين كل الخليقة. حيث تعد هذه النظرة بمثابة مرشد للخروج من الأزمة البيئية، وسلوك بعض الأفراد المعادي للطبيعة، فلو استخدمنا مصطلح الأخ والأخت وكذلك القريب والمُحب في علاقتنا بمخلوقات الله، ستصبح الطبيعة كتاب مفتوح يتأمل الإنسان جماله وقدرة الله فيه.

خامسًا: هناك فكرة مهمة يمكن اعتبارها بمثابة تجديد للخطاب اللاهوتي المسيحي تجاه الطبيعة. تمثلت في إيمان فرنسيس بفضيلة التواضع واحترام جميع المخلوقات ومعاملتها بلطف. فقد حاول تخليص الإنسان من النظرة التي تُقر بسيطرته على المخلوقات، وأقام ديمقراطية حقيقية تشمل جميع مخلوقات الله. فيجب أن نعيش حياتنا كجزء من الخليقة ، وليس باعتبارنا أسيادًا أو أن المخلوقات إنما خُلقت لتلبية احتياجاتنا فحسب. فإذا أردنا المحافظة على البيئة للأجيال القادمة يجب أن تتغير نظرتنا إليها، من خلال إيجاد طرق جديدة تُسهم في تعزيز أواصر العلاقة بين الإنسان والحياة الطبيعية.

المصادر والمراجع:

أولًا: المراجع المترجمة إلى العربية:

القديس أوغســـطين: ١- مدينة الله، ج١، ترجمة الخور. يوحنا الحلو،، دار المشرق، ط٢، بيروت، ٢٠٠٦م.

تومـــــــا الأكوينى: ٢- الخلاصـة اللاهوتية، مج٢، ترجمه من اللاتينية إلى العربية الخورى. بولس عواد، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٨٧م.

نيكوس كازنتزاكيس: ٣- (فقير الله) القديس فرنسيس الأسيزي: ترجمة سهيل نجم، دار التكوين، سوريا، ٢٠١٠م.

ثانيًا: المراجع الإنجليزية:

Alexander Pschera: 1- Animal Internet: Nature and the Digital Revolution, New Vessel Press, New York, 2016.

Anita Guerrini: 2- Experimenting with Humans and Animals: From Galen to Animal Rights, JHU Press, U.S.A, 2003.

Ben Isacat: 3- How to Do Animal Rights, third edition, Lulu.com, U.S.A, 2014.

Charles R. Pinches ،Jay B. McDaniel: 4- Good News for Animals?: Christian Approaches to Animal Well-Being, Wipf and Stock Publishers, U.S.A, 2008.

David Aftandilian, Marion W. Copeland, David Scofield Wilson: 5- What are the Animals to Us?: Approaches from Science, Religion, Folklore, Literature, and Art, first edition, Univ. of Tennessee Press, U.S.A, 2007.

Diana L. Guerrero: 6- Blessing of the Animals: A Guide to Prayers & Ceremonies Celebrating Pets & Other Creatures, Sterling Publishing Company, Inc., New York, 2007.

Don H. Corrigan: American Roadkill: 7- The Animal Victims of Our Busy Highways, McFarland, U.S.A, 2021.

Ercan Özen, Simon Grima, Rebecca E. Dalli Gonzi:8- Emerald Studies in Finance, Insurance, and Risk Management -

New Challenges for Future Sustainability and Wellbeing, volume2, first published, Emerald Group Publishing, United Kingdom, 2021.

Gregory Stephens: 9- Trilogies as Cultural Analysis: Literary Re-imaginings of Sea Crossings, Animals, and Fathering, first published, Cambridge Scholars Publishing, England, 2018.

Gregory Stephens: 10- Trilogies as Cultural Analysis: Literary Re-imaginings of Sea Crossings, Animals, and Fathering, first published, Cambridge Scholars Publishing, England, 2018.

Hans-Joachim Koch, Doris König, Joachim Sanden, Roda Verheyen: 11- Legal Regimes for Environmental Protection: Governance for Climate Change and Ocean Resources, BRILL, Netherlands , 2015.

J. Gordon Melton: Faiths Across Time:12- 5,000 Years of Religious History [4 Volumes]: 5,000 Years of Religious History, ABC-CLIO, U.S.A, 2014.

James V. Parker: 13- Animal Minds, Animal Souls, Animal Rights, University Press of America, U.S.A, 2010.

John Doody, Kim Paffenroth, Mark Smillie: 14- Augustine and the Environment, Lexington Books, New York, 2016.

John Doody, Kim Paffenroth, Mark Smillie:15- Augustine and the Environment, Lexington Books, New York, 2016.

Joy A. Palmer, David E. Cooper, David Cooper: 16- Fifty Key Thinkers on the Environment, first published, Routledge, London, 2002.

László Erdős: Green Heroes: 17- From Buddha to Leonardo DiCaprio, Springer Nature, German, 2020.

Linda Kalof: 18- Looking at Animals in Human History, first

published, Reaktion Books, London, 2007.

Lora Stone: 19- Religion and Environmentalism: Exploring the Issues, ABC-CLIO, California, 2020.

Margo DeMello: 20- Animals and Society: An Introduction to Human-Animal Studies, Columbia University Press, New York, 2012.

Mark G. Boyer: 21- An Abecedarian of Animal Spirit Guides: Spiritual Growth through Reflections on Creatures, Wipf and Stock Publishers, U.S.A, 2016.

Nigel Harris: 22- The Thirteenth-Century Animal Turn: Medieval and Twenty-First-Century Perspectives, Springer Nature, German, 2020.

Roger D Sorrell: 23- St. Francis of Assisi and Nature: Tradition and Innovation in Western Christian Attitudes toward the Environment:, Oxford University Press, New York, 1988 .

ثالثًا: المقالات العلمية:

White, Lynn: 1- The Historical Roots of Our Ecological Crisis. Science, v.155, no. 3767 (March 10, 1967):1203-1207.

Keith Warner, OFM: 2- Franciscan Environmental Ethics: Imagining Creation as a Community of Care, Journal of the Society of Christian Ethics, 31, 1 (2011): 113-160.

رابعًا: الموسوعات

Marc Bekoff:1- Encyclopedia of Animal Rights and Animal Welfare, 2nd Edition [2 volumes]: Second Edition, ABC-CLIO, U.S.A, 2010.